



قضايا العصر

في ضوء الإسلام

تأليف
الأستاذ أنور البشتري

السنة الثالثة - الكتاب الثامن والثلاثون

١٥ من شعبان ١٤١٣ هـ - أكتوبر ١٩٧١ م

سلسلة البحوث الإسلامية

مجموع من صفح ٧



قضايا العصر

في ضوء الإسلام

تأليف
الأستاذ أنور الجندى

السنة الثالثة - الكتاب الثامن والثلاثون

١٥ من شعبان ١٣٩١ هـ - أكتوبر ١٩٧١ م

سلسلة البحوث الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ

عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ »

صدق الله العظيم

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
خاتم المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الإسلام رسالة الله الخاتمة لهداية البشر إلى ما تصلح عليه
دنياهم وتسعده أخراهم ، فهو منهج حياة مثلى يتجاوب مع الإنسان
فردا وجماعة ، في كل بيئة وفي كل عصر ، لا يتأبى ولا ينافر ،
ياخذ الإنسان في بشريته أخذاً رفيقاً متوازناً ، لا يطغى فيه
عنصر من عناصر تكوينه على آخر .

وإذا تناول الإنسان - أى إنسان .. هذا الدين الخاتم تناولاً
معتدلاً ، لا شوب فيه لغرض ، ولا ميل معه لهوى ، فإنه
يخرج بنتيجة لا معدى عنها .

تلك هى : أن هذا الدين هو دين الإنسانية بأشمل ما تعنى
هذه الكلمة من دلالات ، وحبذا لو كان الأمر على هذا النحو ،
وهو ما يجب أن يكون .

لكن العصبية المذهبية والعقدية تعمى وتصم ؛ بل تدفع
إلى المعاندة والتضليل، ثم تتعدى هذا النطاق إلى الحرب الضروس .
من أجل هذا واجه المجتمع الإسلامى ألواناً من التحديات ،
وبخاصة فى عصرنا الذى اتخذ من الثقافة أمضى سلاح للغزو وأفعله؛
فوقع تحت ضغوطه ، وعنقها كثير ممن ينتسبون إلى العلم والمعرفة
من أبناء جلدتنا فى غمرة الدعاية الصاخبة ، وغيبة الإيمان الرشيد .
ونحن نعاصر هذه الألوان ، ونشاهدها ، ويلفحنا حممها .

وكتاب « قضايا العصر فى ضوء الإسلام » لمؤلفه :
الأستاذ (أنور الجندى) يقدم هذه القضايا التى تشغل الأفكار ،
ويناقشها مناقشة جادة ومستوعبة ، منها مفكرى المسلمين أن يتوقوا
المخاطر التى تحتاج أفكارهم ابتغاء تدمير مجتمعاتهم ، وقد أتاح الله
لهم فرصة مجاوزة الوصاية ، وصرف عنهم محنة التبعية للنفوذ
الاستعمارى ، وأصبحوا قادرين على اكتشاف ذواتهم وبناء
أنفسهم ، مع منطلق العلم والإيمان ...

والله الموفق والهادى إلى أقوم سبيل ؟

د . محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

يواجه المجتمع الإسلامى اليوم قضايا متعددة فرضتها عليه تحديات العصر والحضارة ، وخاصة فى مجال الإنسان والمجتمع . وتتصل هذه التحديات بالعقائد من حيث الإيمان والإلحاد ، وتتصل بالنفس الإنسانية من حيث التقوى والإباحة .

وتمتد هذه القضايا إلى الفروق الواضحة بين الدين والعلم ، وبين العلم والفلسفة ، وبين علاقة الإنسان بالأخلاق والفنون والآداب .

وهناك قضايا الموت والبعث والجزاء والمسئولية الفردية . ولقد ألقت إلينا الفلسفة المعاصرة وجهات نظر متعددة فى هذه القضايا ، وحملت دعوات الغزو الثقافى والقوى الاستعمارية ، هذه الآراء والنظريات بهدف واضح .

ونحن إزاء هذه المحاولات على رأى واضح محدد ؛ هو أن لكل معضلة من هذه المعضلات أو قضية من هذه القضايا ، حلولا مختلفة ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التى تستمد مفاهيمها من قيمها ومعتقداتها وتراثها الحى .

ونحن إزاء هذه المعضلات أمام نظريتين :

نظرية غربية تمثل فكر الأمم التي واجهت هذه القضايا .
ونظرية ليست عالمية ولا عالمية ، ولا يمكن تطبيقها على النفس
الإنسانية بعامة ، ولا على المجتمعات المختلفة ، وتكاد تكون
نظرية خاصة . انبعثت من تحديات تلك المجتمعات ، وعقليات
فلاسفتها .

وما من قضية من هذه القضايا (في الاجتماع والسياسة
والأخلاق والاقتصاد والتربية) إلا ولنا نحن المسلمين فيها نظرية
ومنهج ، نظرية أصيلة ومنهج شامل ، يهـدى إلى الحق فيها ،
هذا الحق المستمد من :

١ - أصول الإسلام الذي قدم للبشرية منذ خمسة عشر قرناً
منهجاً متكاملًا للفكر والحياة والمجتمع والحضارة .

٢ - ومن منهج القرآن الذي أهدى للإنسانية حلول الفطرة
البشرية والأصالة الربانية .

فنحن في كل مجال وموقف علينا أن نسأل عن نظريتنا ومنهجنا .
إن النظرية الغربية الوافدة هي من صنع قوم آخرين ، أقاموها
على مقياس مجتمعاتهم ، وابتدعوها في ظل تحدياتهم الواقعية

والتاريخية جميعا : هذه التحديات التي دفعتهم إلى الانفصال
عن مناهج الأديان بل ومعارضتها .

* * *

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الغربي في ظل تحديات
واضحة ، ومن خلال الاستعمار والسيطرة التي فرضها النفوذ
الأجنبي على التعاليم والصحافة والثقافة ، ومن خلال محاولته خلق
أولياء لثقافته ، هم عملاء له في نفس الوقت ، ولم تكن هذه التبعية
اتجاها طبيعيا من المسلمين والعرب ، ولا رغبة أصيلة منهم ،
ولمّا كان ذلك قسرا وغصبا .

ولقد كان النكر الإسلامى دائما متفتحا لثمرات النكر
البشرى، ولكنه كان قادرا حتى في أشد مراحل الضعف والتخلف
على المدافعة عن ذاتيته ، والحيلولة دون انصهاره في الفكر العالمى،
ذلك لأن مقوماته الأصيلة وقيامه أساساً على « التوحيد » حال
دائما دون هذا الانصهار ، وهذا الاحتواء الذى فرضه الغزو
الخارجى عليه . ومن خلال حمايتين من أضخم حملات الغزو هما :
الحروب الصليبية ، والاستعمار الغربى والصهيونى الحديث ،
الذى وصل فى السنوات الأخيرة إلى أقصى مراحل احتلال
الصهيونية بيت المقدس ، وفرض وجودها على الأمة العربية ،

من خلال هاتين الحملتين كان الفكر الإسلامى قادراً على تصحيح مساره الفكرى ورد عادية تزيين قيمه ومفاهيمه .

فعلى مفكرى المسلمين والعرب اليوم أن يتنبهوا إلى هذه المخاطر التى تحتاج فكرهم ومجتمعهم ، من الاستسلام للذاهب والفلسفات المادية التى هى فى حقيقتها سلاح من أسلحة الصهيونية العالمية لهدم الأمم وتدمير مقومات الشعوب .

وأهم هذه الأخطار ، أخطار الفلسفة اليونانية الوثنية التى تحاول الصهيونية اليوم إعادة صياغتها فى نظريات متعددة حول العقيدة والنفس والأخلاق تستهدف بها إذاعة الإلحاد والإباحية، وتحاول من خلالها تدمير مقومات المسلمين والعرب وتخريب مجتمعاتهم .

ونحن اليوم قد جاوزنا مرحلة الوصاية ومرحلة التبعية للنفوذ الاستعمارى وأصبحنا قادرين على كشف الدخائل وتحرير القضايا، ونجدنا على أبواب مرحلة الرشد الفكرى القادر على اكتشاف الطريق ومعرفة الاختار وتبيين الدوافع والخافيات التى تحاول حجبنا عن جوهر فكرنا وأصالة مضامينه وقيمه .

ولنكن على ثقة بأننا لن نستطيع أن نحرر وجودنا إلا إذا حققنا وجودنا من خلال فكرنا وتحركنا من داخل قيمه

ومفاهيمه ومقوماته . لا من داخل قيم ومقومات متمثلة
في الفلسفات المادية .
إن لكل نظرية عوامل ضعفها وقوتها ، والحقيقة لا بد أن
تظهر ولو أخفاها بريق الصياغة ، وخداع الطابع العلمي الزائف .
ولا بد أن تواجه النفس الإسلامية العربية فطرتها وأصالتها ،
وأن تلتقي مع المناهج والحلول التي قدمها إليها الإسلام
في مختلف القضايا والمعضلات ، هذه المناهج القادرة على إعطاء
البشرية هداها ونورها ، وكشف ما تواجهه من قلق وضياح
وغربة مما يردده دعاة الفلسفات المادية .
تلك هي غاية هذه المحاولة في إلقاء أضواء الإسلام على قضايا
العصر والإنسان .

(١)

حَقَائِقُ أُسَاسِيَّة

هناك عدة حقائق أساسية لا بد من الإلمام بها عند مواجهة قضايا العصر في ضوء الإسلام

(الحقيقة الأولى) أن لكل أمة مزاجها النفسي وذاتيتها الخاصة القائمة على أساس من عقائدها وقيمها وآدابها ومفاهيمها التي عاشت عليها منذ ألوف السنين ، وأن هذه الأمة حين تواجه أى قضية من القضايا أو حدث من الأحداث أو موقف من المواقف إنما تستمد استجابتها لإزائه من هذه المضامين .

(الحقيقة الثانية) أن العرب والمسلمين لهم أيديولوجيا أساسية في مجال النظرة إلى الكون والحياة والله والإنسان والمجتمع ، هذه النظرة مستمدة أساسا من القرآن الكريم ومن تطبيق نبي الإسلام ورسوله في حياته وبيانه .

ومن منطلق واضح يحدد قوامه :

١ - أن الإسلام هو خاتم لرسالات السماء ، جاء امتدادا لها ،

وخاتما وناسخا لها ورسالة إلى الإنسانية كافة .

٢ - أن القرآن هو النص الموثق الذي لم يصبه أى تحريف ،
كتاب الله المنزل بالحق ، الذى أعطى البشرية منهجا كاملا للحياة
والمجتمع والأخلاق وعقيدة ناصعة قوامها التوحيد .

(الحقيقة الثالثة) ان الفكر الإسلامى إنما قام أساسا مستمدا
من القرآن والسنة الصحيحة وأنه استكمل نهجه قبل أن تنتقل
مترجمات الفلسفات الشرقية والغربية ، وأنه فى مواجهة هذه
الفلسفات ظل قادرا على الاحتفاظ بذاتيته ومقوماته ، وأنه أنشأ
منهجه فى الفكر ونظامه فى الحياة .

(الحقيقة الرابعة) أن الفكر الإسلامى قد أقام منهجا فكريا
مستقلا يختلف اختلافا جذريا عن مختلف مناهج أفكار الأمم
وفلسفاتها وعقائدها .

وأنه أقام منهج المعرفة الإسلامى على أساس عقلى وروحى معا ،
فجعل للعقل منطلقه فى مجال العلوم والمحسوسات ، وجعل
للروح منطلقها فى مجال الغيبات وما وراء الطبيعة .

وأن الإسلام أقام ميثولوجيا خاصة به تختلف عن نظرية
اليونان ومناهج الأديان القديمة وفلسفاتها .

(الحقيقة الخامسة) أن هناك مؤامرة دائمة مستمرة لغزو الفكر الإسلامى وإخراجه من قيمه ومناهجه ومحاولات لتدمير مقوماته وإدخال مفاهيم أخرى للقضاء على استقلالته وذاتيته وإذابته فى الألفية العالمية .

وأن المسلمين قد واجهوا مثل هذا الغزو على قترات متوالية من تاريخهم ، حين حاولت الفلسفة اليونانية الإلهية الوثنية، وحين حاولت المجوسية والباطنية ، وفلسفات الغنوصية الشرقية إخراجه عن مقوماته .

وقد جاهد الفكر الإسلامى ذلك جهاداً صابراً تسكل بالظفر دائماً، واليوم يراجعه الفكر الإسلامى غزواً جديداً أشد ضراوة ، فى محاولة الفلسفات الغربية إخراجه من مقوماته وتدميره ، وذلك بمحاولة فرض مذاهب فلسفية فى مجال النفس الإنسانية والألوهية والبحث ووجود الذات ، تعارض تماماً قيمه الأساسية وتشكل بريقها الخادع وزيفها المسبوك أثراً فى العقول الحديثة والأذهان المتطلعة .

(الحقيقة السادسة) الواقع أن هناك حرباً تشنها القوى الاستعمارية والحادية والضيونية على مقومات الفكر الإسلامى

باعتباره آخر الحصون التي تثبت للمقاومة في وجه الغزو السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

فإن هناك محاولة دائبة لإخراجه من مقوماته ، وتزييفه بالإضافة إليه أو تحويره عن مناهجه ، أو التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله .

وهناك أدلة متعددة ووثائق أكيدة حول هذا الخطر ، والمخططات التي رسمت لهذا الغزو ، وقد سجلت ذلك بروتوكولات حكماء صهيون في أكثر من موضع ، كما ورد في عشرات من المؤلفات والتقارير والمخططات .

(الحقيقة السابعة) أن الاستعمار حين سيطر على العالم الإسلامى إنما كان يستهدف تفرغ الذات العربية الإسلامية من مقوماتها النفسية والروحية والاجتماعية المنبثقة عن الإسلام ، وكانت أولى مخططات هذا التفرغ هي تزييف مناهج التاريخ والتراث واللغة العربية والفقه الإسلامى ، وطرح نظريات ومناهج ومفاهيم غربية عديدة في مجالات الأدب والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وبالرغم من أن هذه النظريات لها جذورها في الفكر الإسلامى فإنها عرضت على أنها نتاج خالص للفكر الغربى ،

فضلا عن أنها لم تعرض كوجهة نظر غربية ، وإنما عرضت على أنها من ثمرات الفكر العالمى أو آخر مقررات العلم .
والواقع أنها :

أولا : ليست علما ولكنهما فلسفة و فرق كبير بين العلم والفلسفة .
ثانيا : أن لنا نحن العرب والمسلمين نظرية وللغرب نظرية
فى مختلف هذه القضايا سواء اتصلت بالنفس أم بالاجتماع أو سائر
جوانب المعرفة الإنسانية .

ومعنى هذا أن الاستعمار كان يعمل أساسا على تفريغ الأمة
العربية والعالم الإسلامى من محتواهما العقدى وذلك حتى يجعلهما
مؤهلين ليقبل مفاهيم أخرى ، تغطى الحاجة فى دائرة النفس
والعقائد والمجتمع ، فإذا جاء هذا الجديد لم يجد حصانة تحول دون
تقبله ، ولم يجد معرفة تفهمه وتكشف زيفه أو تعطى القدرة على
المقارنة بين تبعيته وأصالة النهج العربى الإسلامى فى الموضوع
نفسه .

(الحقيقة الثامنة) ولذلك فإن أهم ما يجب علينا أن نعرفه
هو أن هناك نظريتين فى مختلف هذه المجالات - مجالات النفس
والعقائد والاجتماع :

* نظرية عربية إسلامية أصيلة مستمدة من قيمنا وتنطق مع ذاتيتنا
ومزاجنا النفسى وقائمة على طوابعنا الجامعة بين الروح والمادة
والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة .

* ونظرية غربية قامت فى بلادها واستمدت مقوماتها من قيم
فكرها ووجودها الاجتماعى أو النفسى الخالص .

٦ (الحقيقة التاسعة) أن الفكر العربى يرفض النظريات الوافدة
فى مجال النفس والاجتماع والثقافة ولكنه يقبلها فى مجال العلوم
والحضارة ، ذلك لأسباب عميقة بعيدة المدى ، أهمها :

قيام المجتمعات العربية والإسلامية أساسا على الترابط بين
الدين والمجتمع وقيام مناهجها على أساس أخلاقى دينى وكون
الإسلام دين ومنهج حياة ، وكون نظرية المعرفة الإسلامية ذات
جناحين مادى وروحى ، عقلى ووجدانى . بينما تصدر هذه
النظريات من دائرة الغرب فى مواجهة تحديات مجتمعاتها .

٦ (الحقيقة العاشرة) أن استجابة المجتمعات العربية الإسلامية
لهذه النظريات الوافدة ليست استجابة أصيلة ، وإنما هى تحدث
تحت تأثير إغراء البريق ، وعقدة النقص وتقاييد الغالب ، وفى ظل
الفجوة الحادثة من نقص المعرفة الأصيلة بمناهج فكرنا ومقوماته .

أخطار تهديد النفس الإنسانية

إن هناك ثلاثة أخطار تهدد النفس الإنسانية قوامها الفلسفة المادية :

- أولاً - الإلحاد في مواجهة الإيمان والهجوم العاصف على العقائد والأديان والنظرة المضطربة إزاء الألوهية والبعث، ومحاولة إنكار الغيبيات إنكاراً تاماً وقصر النظر والمعرفة على المحسوسات .
 - ثانياً - إعلاء الغريزة واعتبارها مصدراً أساسياً لكل تصرفات الفرد الإنسان، والدعوة إلى إطلاقها والتحذير من أخطار ما يسمى بالكبت والأمراض النفسية .
 - ثالثاً - تأكيد الذات وتحقيقها بحرية التصرف دون تقدير للضوابط التي تحفظ كيان الفرد، أو الحدود التي تحفظ علاقات الأفراد وذلك في مواجهة ما يسمى بخطر الموت أو الحروب الذرية .
- هذه أبرز مفاهيم النظريات العصرية التي تواجه مجتمعاتنا ١ وفكرنا العربي الإسلامي والتي صدرت^٢ عن المجتمعات الغربية في ظل التحديات المختلفة التي تواجهها تلك المجتمعات والتي تقوم أساساً من داخل الفكر الغربي وفي طريق تطوره وانطلاقه .

وهي نظريات طبيعية بالنسبة لها لأنها مرتبطة بتاريخه وعقائده وبالأرضية الإغريقية التي ابتعثتها الحضارة الحديثة / والتي لا تجد في طوابع التحلل والإباحة أمراً غريباً عليها بل امتداداً طبيعياً للحضارتين الإغريقية والرومانية .

بل إن الأصول التي تقوم عليها هذه النظريات إنما هي مستمدة أساساً من الأساطير اليونانية والإغريقية القديمة .

أما العقل العربي الإسلامي وأما النفس العربية فإنها لا تقبل هذه النظريات وترفضها وتراها متعارضة تماماً مع مفاهيم الفطرة التي فطر الإنسان عليها .

فالإنسان بطبيعته متدين ، أخلاقي ، ولقد جاء الإسلام فأقام منهجاً فكرياً جامعاً بين العقل والقلب والروح والجسد ، موافقاً تمام الموافقة لطبيعة الإنسان وفطرته .

فالإنسان أساساً روح وجسد ، وكل منهج عقائدي ونفسي لا يقوم على الترابط والامتزاج بين الروحي والمادي في الإنسان بالوحي والبصيرة من ناحية وبالعقل والعلم من ناحية أخرى .

أما الفلسفة المادية تضاد مفاهيم الفطرة والدين وذلك لأنها تنتزع الجانب الروحي من قيم المعرفة وتقتصر على الجانب المادي .

أما نظرية المعرفة الإسلامية فهي لا تعلو جانباً على آخر
ولكنها تربط بهما وتوازن مستمدة ذلك من تركيب الإنسان
نفسه .

٦٢ والفلسفة المادية تقدم للإنسان نظرية مخالفة للفطرة والامتيازات
الساوية ، ولا شك أن هدف هذه النظرية أساساً هو هدم الشخصية
الإنسانية وتحطيم مقوماتها .

وبذلك تستلغ القوى التي تدفع هذه النظريات أن تسيطر
على الأمم والمجتمعات .

وذلك هو الخطر السكمن وراء تضاد هذه النظريات للفطرة
ولطبائع الأمور وللمفهوم الإنساني الأصيل الذي جاءت به
الاديان وعرفته البشرية طويلاً وأقامت حياتها ومناهجها عليه .
إن هدف الفلسفات المادية أساساً هو هدم الإنسان من داخله
٧ وتفريغه من عقائده وإيمانه الراسخ عن طريق نظريات ذات
طابع براق وقوالب علمية لا تثبت أمام الحقيقة .
وليست نظرية المادية والحسية والوجودية جديدة .

وليست هي خلق قدمته عقول مستحدثة ، ولكنه انبعاث
لفلسفات قديمة عرفتها اليونان والإغريق وعرفته المجوسية
الفارسية والقنوصية الشرقية.

وقد مضى وقت طويل على هذه الفلسفات وقد ازدرتها البشرية بعد أن تقدمت خلوات واسعة في ضوء التوحيد والعقل والإيمان ، ولكن هذه القوى الضاغطة لم تلبث أن ابتعثتها من خلال الأساطير والوثنيات، وجددتها وصاغت في أسلوب العصر، وأحكمت إخراجها في جو علمي، وحاولت أن تخدع الناس بأنها علم ، وبأنها حقائق .

ومع أن كل الحقائق العلمية والمختبرات العملية ، والحقائق الجديدة التي كشف عنها تفتت الذرة .

هذه الحقائق العلمية التي أخذت تقرب من مفاهيم الأصالة X وتكشف عن وجود الله وعن توازن الإنسان وعن وجود الغيب ، بالرغم من هذا فإن الفلسفة المادية التي تحتضن دعوات الإلحاد والإباحة إنما تسيرها قوى ضاغطة ونفوذ فكري خطير، قادر على أن يدفع هذه النظريات ويذيعها ويؤكد لها في النفوس ويدخلها في مناهج الدراسات والجامعات .

إذن فليس العلم هو الذي صدرت عنه تلك النظريات ولكنها الفلسفة التي تحاول أن تسمى نفسها علماً .

إن العلم نفسه يقترب من الحقائق التي جاءت بها الأديان ،
ويقر بوجود عالم الغيب ، ولكن الفلسفة المادية هي التي تعلى
من نظريات إعلاء الغريزة وإنكار الغيبات والهجوم العاصف
على الألوهيات ، وتدفعها إلى الأمام في قوة ، وتمدها بالتفوذ
والسلطان .

تلك هي القوة الاستعمارية التي تطمع في تدمير المجتمعات
وإنسانية الإنسان لإتمام سيطرتها وإحكام نفوذها .

أضواء على التغريب

هناك أضواء لا بد من إلقائها على تيار التغريب والغزو الثقافي المتدفق في وجه الإسلام والفكر الإسلامي والثقافة العربية، هذه الأضواء قد تضع كثيراً من النقاط على الحروف وتكشف الحقيقة الخفية وراء الدعوة إلى اعتناق مناهيم الغرب :

(الضوء الأول)

يرويه الدكتور مندور عن نتيجة دراساته في أوروبا عن ماذا يقول الأساتذة الغربيون للطلاب من العرب والمسلمين :

يقول قال أستاذهم : « إن مبادئ الأخلاق إن هي إلا ظواهر اجتماعية تملئ على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها أو فضل في الإيمان بها ، إن إرادة الإنسان الحرة التي يعتز بها ليست إلا وهما ، لأن المرء لا يملك لنفسه شيئاً وإنما هو مسير بغرائز وقوى » .

ورجع الدكتور مندور إلى الرجل العجوز صاحب المنزل الذي يقطن فيه ، ليعيد عليه ما سمعه وهو يستغربه .

قال له الرجل العجوز : « هل تظن أن هذه الآراء التي سمعتها من الأساتذة في علم الاجتماع وعلم النفس صحيحة ؟ ، أظن أن حقائقنا البشرية من اليسير بحيث تصبح نظريات أو يكشف عنها التفكير المجرد ؟ .

يا بني : إن التفكير الأوربي يمثل ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الإنسان عند ما زعم (دوركايم وليفنبريل وموسى وفوكونيه ومن تبعهم) أن الإنسان حكمه حكم المادة ، وأن هناك ما يسميه هؤلاء وعيا اجتماعيا تتمخض عنه الحياة العامة ، كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيج من العناصر ، احذر يا بني أن توقن بما يقولون ، فإيس صحيحا أن الرجل المهدب لا يستطيع أن يصل إلى قيادة شخصية يهتدى بها إلى مواضع الخير والشر والبطولة والخسة بنفسه ، كما تهتدى التطيور إلى أوكارها .

وليس صحيحا أن قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لا نستطيع في علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قواعد عامة .
هذا يا بني وهم بل خداع مبطلين .
ثم ذكر أننا في مجال المعرفة بالإنسان ، ليس لنا إلا هدف واحد هو أن نصبح خيرا مما نحن .

أنا أفهم أن نكشف عن قوانين المادة لنسيطر بها ونسخرها في مرافق حياتنا ، ولكن الإنسان ما شأنه بالقوانين ، من قال إن الإنسان مادة فحسب ، وهب أنه مادة وأن الروح لم يكن لها وجود ، وأن تفنى بفناء المادة ، كما تنعدم النغمات ، أليس من الخير بل من الواجب على الإنسانية أن ترفض علما كهذا ، لن ينتهى إلا بتحطيم حياتنا وشل إرادتنا .

هذا ما أورده الدكتور محمد مندور عن تجربته في التعاليم الأوربي (راجعه بالنص في مجلة الرسالة مجلد ١٩٤٤ ص ٨٨٣) .

(الضوء الثانى)

ما أورده الدكتور منصور فهمى عن تجربته في أثناء بعثته التعاليمية في أوربا عند ما أغراه (ليفى بريل) الأستاذ اليهودى المشرف على الأطروحة في أن يكتب عن (حالة المرأة في الإسلام) ويعرض من وجهة نظر الغزو الثقافى عن زوجات الرسول . يقول في اعترافه في أواخر حياته :

« الشكوك الدينية قد عرضت لى في عهد الشباب ، أثناء إقامتى في أوربا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة التفكير وطلب الحقيقة ، ولم تكن - علم الله - عن تصنع أو هوى أو نزق ، ولم تكن على الطريقة التى يتظاهر بها بعض الأدعياء ،



حينما يريدون أن يتخذوا سمت الفلاسفة أو العباقرة من المفكرين والباحثين ، فيظنون خطأ أن ذلك يستلزم الظهور بمظهر الشك والحيرة والطمع على المقررات والمعارضة للمألوف (يقصد بعض زملائه في البعثة التعليمية) .

وأحمد الله فإن هذه الشكوك التي حيرتني وأضتني حينما من الزمان - حيث استمرت قرابة ثلاثة أعوام - كانت وسيلة إلى الاطمئنان ، ومفتاحا لقوة الإيمان ، وقنطرة إلى ثبات اليقين ، فقد انتهيت من شكى الدينى ، وحيرتى الروحية إلى نتيجة حاسمة واضحة هي :

« أن القيم الرفيعة والأصول الأولى التي صقلتها الأزمان وارتقتها الأديان هي أولى الأمور وأحقها بأن تكون الدعائم القوية التي نعتمد عليها في مسالكنا خلال الحياة » .

هذه الأضواء تكشف مدى خطر التماس النظريات الغربية المادية دون أن يكون هناك سناد من التربية الدينية الحقة ، أوفهم الإسلام فهما صحيحا ليكون عاصما لنا من الخلط بين وجهة ووجهة ، وجهة قوامها الإسلام والتوحيد وهدى الوحي والنبوة وسلامة الإنسان وحماية نفسه وجسده وروحه من الانهيار ،

وبين وجهة أخرى تعتمد أساسا على نظرية يونانية إغريقية وثنية مضطربة وهناجيء دور الضوء الثالث الذى تقدمه فى ظل التأمل الواعى.

(الضوء الثالث)

« الفيلسوف اليونانى (سقراط) هو الذى استطاع أن يترك ظله العميق العنيف على كل الحضارة الغربية ، فقد كان سقراط رجلا دميما ، ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقى ، وقد استولى الشذوذ الجنى على الحضارة الإغريقية كلها مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد ، واستطاع « سقراط » بذكاء وخبث أن يفرض احتقار الجسد الإنسانى ، سواء جسد الرجل أم جسد المرأة ، واحتقار كل ما هو حسى ، ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هى حس فقط ، وجنس فقط ، فقد استبعد لها من دنيا الحياة العقلية ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان ، ووراء (سقراط) وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والآداب والمسيحية (الغربية) أيضا حتى يومنا هذا ، (١) .

٦ هذه الأضواء الثلاثة تستطيع أن تكون خطاصريحا واضحا للباحث لى يقف من قضايا العصر موقف اليقظة إزاء وجهتى النظر المختلفة والمتباينة بين رأى الإسلام ورأى الفلسفة الغربية فى الإنسان والنفس والأخلاق جميعا .

(١) بالنص من كتابات الأستاذ أنيس منصور .



قضايا العصر



الفضية الأولى

الإسلام والعلم

إن أخطر ما توجهه النظريات الفلسفية إلى العصر : النظرة المادية وإلغاء ما غير المحسوس ، ومهاجمة الغيب ووصف النظرة الدينية عامة بأنها نظرة غيبية أو سلفية تتعارض مع التقدم والتحرر والحضارة .

وتتشكل حول هذا المفهوم نظريات متعددة معروفة بأسمائها وأصحابها وكلها سواء أكانت نفسية أم اجتماعية تقيم أرضيتها على أساس :

- ١ - إنكار الدين بصفة عامة .
 - ٢ - إنكار الغيب .
 - ٣ - إنكار الله الحق .
 - ٤ - اعتبار أن العالم مادي سرمدى خلق نفسه .
- والواقع أن هذه النظرية كانت أول الأمر من فرضيات العلم في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين وقد كانا كذلك نتيجة لتحد خطير واجه العلم في أوروبا هو معارضة حملة الدين له والتعصب ضده وقتل أعلامه .

ومن هنا نشأ ذلك الخلاف الحاد بين العلم والدين ، أو في الحقيقة بين رجال العلم ورجال الدين .

وقد مضى العلم في طريقه لحقق كثيرا من النتائج وما يزال يمشى في طريقه ، ونتائج الأخيرة التي نراها الآن ونقرأها ، وخاصة بعد انفلاق الذرة تكشف عن تحول خطير ، واختلاف واضح عن النظرة القديمة ، فقد تقارب العلم الآن مع مفاهيم الدين الصحيح ، وخاصة في الاعتراف :

١ — بعالم الغيب .

٢ — بوجود قوة مسيطرة تدير الكون .

٣ — بأولية ونهاية هذا العالم المادى .

ولا شك أن هذه النتائج التي وصل إليها العلم قد كسرت ذلك القيد الذى سيطر طويلا على العلاقة بين الدين الصحيح والعلم .
أما حملة ألوية النظرة المادية الآن فليسوا هم العلماء ولكنهم بعض الفلاسفة ، ولم تعد النظرة المادية نظرة علمية بل هى نظرية فلسفية تلبس ثوبا علميا ومن ورائها قوى كثيرة تحركها وتدفعها وأهداف بعيدة المدى ترمى من ورائها إلى السيطرة وتوطيد النفوذ الاستعماري والسياسي .

وليس الخطر في النظرية الفلسفية نفسها ولكن الخطر

في النفوذ الاستعماري الذي يروج لها، ذلك لأن كل نظرية تستطيع أن تثبت بقدر ما تحمل من عناصر البقاء ، وهي تسقط إذا لم تكن مطابقة لأصول العلم والفطرة الإنسانية .

ولكن هذه النظريات التي تروج رواجاً كبيراً حول العقائد والنفس الإنسانية والوجود الفردي إنما هي نظريات سقطت في البيئات التي ظهرت فيها وهي منبثقة منها أساساً وفي ضوء تحديات تلك المجتمعات ، وكان سقوطها عن طريق العلماء والفلاسفة الذين صححوا اتجاهها وعدلوا من غلوها .

ولكن القوى التي تحمل لواء التخريب والاستعمار قد حجبت تلك النظريات المصححة ، وأعلت هذه النظريات المضطربة ، ورتبت لها شهرة زائفة وانتشاراً فائقاً عن طريق قدراتها الإعلامية في ميادين النشر وقواها ودعاتها في كل مكان .

ونحن نعرف أن خطر نظرية (دارون) ليس فيما قاله (دارون) ولكن فيما قاله (سبنسر) وغيره ممن حولوا نظريته التي قصرها على ميدان الأحياء والأجناس إلى نظرية اجتماعية وسياسية عامة .
٦. وكذلك ليس الخطر فيما قاله (فرويد) فإن زملاءه (ادلر، يونج) عارضوه في نظريته إلى الجنس وعدلوا نظرية التحليل النفسي

تعديلا مقاربا لأصول الأشياء ولكن سقطت هذه الآراء وذاغت
آراء (فرويد) وحدها وسيطرت على الأدب والاجتماع جميعا .
ويبدو ذلك واضحا من مراجعة سريعة لبروتوكولات
حكماء صهيون حيث تقول الفقرة :
« نحن الذين رتبنا » .

إذن فهناك عوامل أخرى وراء النظرية الفلسفية المحضة ،
التي قد تسقط علميا إذا ما انكشف أنها لم تحقق نتيجة صحيحة
أو تصدر عن تقدير مضبوط .

٦ وهذه النظريات الفلسفية هي أشبه بالأزياء ، في تحولها
وتغيرها وتجدها خضوعا للعصور والبيئات واختلافا مع القائلين
بها وتحدياتهم النفسية والاجتماعية .
٧ ومن هنا وجبت ضرورة التفريق بين العلم والفلسفة ، فالعلم
هو الحقائق العملية الثابتة والفلسفة هي الفرضيات العقلية
في مجال النفس والمجتمع .

وقد تقرر في نظر العلماء والباحثين منذ وقت بعيد أن العلم هو
بمجموعة المعارف المتعلقة بالفيزياء والكيمياء والاحياء وهي العلوم
الطبيعية .

أما الدراسات التي تجرى في الحقول الإنسانية والبشرية كالاقتصاد
والسياسة والتاريخ والنفس والتربية فهي علوم فلسفية من حيث



4 أنها تخضع لأسلوب علمي ولكنها وهي تتصل بالانفس الإنسانية التي لا تقاس بمقاييس المادة ؟ ولا تخضع للأنايق وأنايب الاختبار ، ذلك أن النفس الإنسانية شيء قائم بذاته لا يدرس دراسة معملية ، ولكنه يدرس من نواحي أخرى تكشف عن ظواهره في بيئته وفي عصره ، ولا تستطيع هذه الدراسة أن تنطبق على بيئة أخرى أو عصر آخر ، وأن الإنسان ليس كالحوان الذي تجرى عليه التجارب وأن هذه التجارب لا تنطبق تماما على الإنسان الذي يمتاز بين الكائنات البشرية بالعقل والإرادة .

5 2 وأن وضع الإنسان تحت مختبرات معملية محددة هي مسألة عسيرة كل العسر ولا يستطيع أن يحقق نتائج مضبوطة أو صحيحة . ولذلك فقد أكد العلماء بأن دراسة سلوك الإنسان ونشاطه هي من الأمور العسيرة التي لا تخضع للمختبرات العلمية وأن ما يمكن الوصول إليه منها سيظل عاملا مساعداً لإلقاء الضوء أو التوضيح ولكنه لا يستطيع بالحق أن يقرر حقيقة ما تقرير اعلميا كما تقرره الأناييت بالنسبة للمختبرات المادية . وهذا هو الفرق بين الإنسان والحوان والمادة .

أجمع العلماء في شبه رأى موحد على أن العلم لا يستطيع أن يقوم بمهمة تفسير ظواهر الأشياء وتعليلها ولكنه يقتصر على وصفها وتقريرها، فمهمة العلم قاصرة حتى الآن على وصف ظواهر الأشياء، وقد كان العلم في أزمان الأوائل إنما يراد به تفسير الوجود، وكان العلماء في أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها. فقد ترك العلم للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود بعد أن عجز في هذا المضمار ولم يسفر بحثه عن شيء.

والعلم لا ينسر شيئاً وإنما يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالي يضيف ويقرر وليس هذا فهما للأشياء ولكنه تعرف عليها، ويقرر العلماء أن المعرفة العلمية تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التي يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لا اكتشاف قوانينها، والعلم يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا عن طريق الحواس ولذلك فكل ما يقع وراء الحس أو العقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئاً.

وليست حقائق العلم مطلقة وأبدية بل هي تقرر الحقيقة



النسبية والبحث العلى صراع لا ينتهى بين الإنسان والطبيعة
فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها،
وما يزال العلماء يتساءلون : هل يستطيع العقل أن يدرك الحقيقة ،
لقد قطع أشواطاً طويلة خلال ثلاثمائة سنة ، فهل استطاع
التوصل إلى الحقيقة؟ .

ويكون الجواب : أن العلم حتى الآن رغم تقدمه فى ميادين
مختلفة قد عجز عن حل المشاكل الكبرى المتمثلة فى أصل الكون
ونهايته وطبيعة المادة ومنشأ الحياة وخلود الروح.

٦ يقول : (مارتين ستانلى كوينج) :

إن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات وتنتهى بالاحتمالات .
وليس باليقين ، ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، عرضة للأخطاء
فى القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل ،
بالإضافة والحذف وليست نهائية ، وقد اضطر العلم منذ أجيال
أن يترك البحث فى كنه الأشياء بعد أن تبين له أنه لا سبيل
إلى معرفة الكنه المغيب عن الحواس واكتفى بدراسة ظواهرها .
٦ ولا شك أن اتخاذ المادية الصرفة أساساً للعلم وانفصالها
عن عالم الغيب قد كشف عن عجز العلم عن فهم كنه الأشياء .

ويقول (رسل تشالزارنست) : « إن كل الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع عل أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية » .

غير أن انفلاق الذرة قد خلق عصراً جديداً في العلوم لاشك أنه مؤشر واضح إلى اتجاه جديد :

يقول العلامة هايدن في كتابه « المادية » .
« ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكيرباء وبروتونات موجبة والكترونات سالبة ، وطغت عليها نظرية (الكوانتوم) التي تقول إن الكيربائية تجيء * شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول ، ومن هنا لم يستطع المذهب المادى الإجابة على هذا السؤال ؟ .

قال هايدن معلقا : إن الحقيقة التي طفق الإنسان يبحث عنها دهوراً عديدة هي روحانية في وجودها ، والروح لا يدركها العقل » .



وتحدد آخرواجه «العلم» : هو غلبة تيار التكنيك . والتكنيك هو المنطق الآلى للعلوم .. هذا التحدى هو أن يصبح التكنيك سيد العلم وسيد العقل البشرى ، ويكون الإنسان عبده الخاضع له بدلا من أن يكون سيده المسيطر عليه .

ويقول الباحثون : « إن العلم قد انحرف عن سبيله فقد أصبح سيد الإنسان بعد أن كان الإنسان صانعه وخالقه ، فكما أن جسم الإنسان يفقد خصائصه كإنسان حى ، إذا فقد الحياة النابعة من عقله وقابه كذلك التكنيك يفقد خصائصه المنتجة إذا أضحي هو سيد العلم بدلا من أن يكون العلم سيده » .

٦ ونسمع اليوم أصوات العلماء تتعالى بما يدحض النظرية المادية أو على الأقل يشير الشبهات القوية حولها كمقدمة لانهارها في المستقبل القريب .

فهؤلاء العلماء يكشفون اليوم حقائق جديدة . ويعلنون أن قوانين (الديناميكا الحرارية) قد أخذت تدلهم على أن لهذا الكون بداية ، وأنه إذا كان للكون بداية فلا بد له من مبدىء ، من صفاته العقل والإرادة واللا نهاية .

ويقولون : إن هذا الخالق لا بد أن يكون من طبيعة تخالف طبيعة المادة التي تتكون من ذرات تتألف بدورها في شحنات أو طاقات لا يمكن بحكم العلم أن تكون أبدية أو أزلية (١) .

وعلى ذلك فلا بد أن يكون هذا الخالق غير مادي وغير كفيف ولا بد أن يكون لطيفا متناهما في اللطف ، خبيراً لانهاية لخبرته لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

(١) راجع كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وكتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) .

ويقول هؤلاء العلماء :

فإذا كنا نريد أن نصل إليه (أى إلى الله) فسيبيلنا إلى ذلك لا يكون بحواسنا التي لا تستطيع أن ترى إلا الماديات الكثيفة وإذا كنا نريد أن نلص وجوده فإن ذلك لا يمكن أن يتم داخل المعامل أو أنابيب الاختبار ، أو باستعمال المناظير المقربة أو المكبرة ، وإنما باستخدام العنصر غير المادى فينا ، كالعقل والبصيرة .

إن فروع العلم كافة تثبت أن هناك نظاما معجزا يسود هذا الكون ، أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ، والتي يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها ، وقد باغت كشفنا من الدقة قدراً يمكننا من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين .

والسؤال هو : من الذى وضع هذا النظام وسن هذه القوانين وأقام هذه السنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل .

ويوجه العلماء هذا السؤال ويحييون عليه !

هل نشأ الكون مصادفة ؟

إن العلماء يشرحون معنى المصادفة ويشيرون إلى استخدام الرياضة وقوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة



من الظواهر . لقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزيء واحد من الأحماض الأمينية (وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتينات واللحوم) فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين وإلى مادة لا يتسع لها هذا الكون المترامي الأطراف ، هذا التركيب (جزيء واحد) على ضآلته فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعا من نبات وحيوان . وما بالك بما لا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى ، وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السموات والأرض وكانت الإجابة هي :

أنه يستحيل عقلا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء أو الخبطة العشواء . لا بد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير ، أحاط بكل شيء علما ، وقدر كل شيء ثم هدى ، ويقول العلماء : إن الإنسان لا يستطيع أن يدرس أعمال أى صانع من الصانع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذى أبدع تلك الأعمال . وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا فى دراسة أسرار هذا الكون وسكانه ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذى أبدعه . ٢ ويقول العلماء : إن الأرض والسموات بسائر تعقيداتها والحياة فى شتى صورها ، وأخيرا الإنسان بكل قدراته العليا ،



كل ذلك أشد تعقيداً من أن يتصور الإنسان أنه حدث هذا وبمحض الصدفة ، فلا بد إذن من عقل مسيطر ومن إله خالق وراء كل ذلك (١) .
ويؤكد العلماء نظرية الإسلام في أن المعرفة تتم بواسطة العقل والقلب يقول (روبرت هورتون كاميرون) : إن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين :

البصر والبصيرة ، أما البصر فهو ما نتعلمه في حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة .
وأما البصيرة فهي ذلك النور الذي يفرغه الله في قلوبنا فيكشف لنا ما لا نعلم .

وكذلك الحال فيما يتصل بالإيمان بوجود الله ، إذ لا بد أن يقوم أولاً على البصر وملاحظة ظواهر الحياة : الفكر والانفعالات ، والتمييز الخلق ، وحرية الإرادة ثم نلتجئ بعد ذلك إلى الله لكي يكمل إيماننا ويدعمه .

ويقول العالم الكيميائي (واين أولت) :
إن الله كما نعرفه ليس « مادة » أو طاقة كما أنه ليس محدوداً حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك نجد التصديق بوجود الله يقوم على أساس « الإيمان » وهو إيمان يستمد تأييداً علمياً من الدلائل غير المباشرة التي تشير إلى وجود « سبب أول » أو إلى « دافع مستمر » منذ القدم .
(١) ما لكونم ذلكان ويتتر .

« إن الإيمان بالله يعد لازماً لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته في الحياة ، ولا شك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيراً بسيطاً سائماً واضحاً في النشأة والإبداع والفرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر .

أما « النظريات » التي ترمى إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محور « المصادفة » .

فالمصادفة هنا فكرة يستعان بها عن فكرة (وجود الله) بقصد إكمال الصورة ، والبعد بها عن التشويه .

٦ ولكن فكرة (وجود الله) أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شك ، بل إن ذلك النظام البديع الذي يسود الكون يدل دلالة حتمية على وجود « إله » منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط .

وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه أن يسلم تسليماً منطقياً بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه ولا لقدرته ، موجود في كل مكان ، يحيط مخلوقاته برعايته سواء في ذلك

✓✓

الكون المتسع ، أو كل ذرة أو جزيئة من جزيئات هذا الكون
اللانهاية في تفاصيلها الدقيقة .

« هناك ظواهر عديدة لا يمكن تفسيرها أو إدراك معناها
إلا إذا سلطنا بوجود الله ، ومن ذلك مثلاً :

« الفراغ اللانهاى ، وما يسبح فيه من النجوم والكواكب
التي لا يحصيها عد ولا حصر ، ومن ذلك أيضاً :

« قابلية المادة للانقسام إلى جزيئات أساسية بالغة الصغر
مهما كانت طبيعتها . ومن ذلك :

« التشابه الذى نشاهده بين جميع الكائنات الحية التى نعرفها
مع اتصاف كل فرد بل كل نبات بل كل ورقة من أوراق
الأشجار ، وقطرة من قطرات الماء بصنات تميزها عن غيرها .

٦ وهناك أيضاً تلك الهوة العميقة التى تفصل بين الإنسان
وبين سائر الكائنات الأرضية الأخرى وتجعله ممتازاً عليها
بعقله ومهارته اليدوية .

وذلك هو الإيمان البصير الذى يقوم على العقل والتدبر .

* * *

وفي موضوع « الإله » : يقول العلماء التجريبيون القادمون من داخل المعامل وأنايب الاختبار :

٦ « إن الإله الذي نسلم بوجوده لا ينتمى إلى عالم الماديات ولا تستطيع حواسنا المحدودة أن تدركه ، وعلى ذلك فمن العبث أن نحاول إثبات وجوده باستخدام العلوم الطبيعية لأنه يشغل دائرة غير دائرتها المحدودة الضيقة .

« لا بد لنا أن نسلم أن هذا الكون المادى الذى يخضع لقيود الزمان والمكان ليس إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة الكبرى التى ينطوى عليها هذا الوجود (١) » .

٦ « وإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها فلا بد أن يكون الخلق قديم بقدره كائن غير مادى .

« وعلى ذلك فالنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها عاينا العقل لا بد أن يكون هذا الخالق علماً حكماً ، قادراً على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائماً الوجود تتجلى آياته فى كل مكان (٢) » .

* * *

(١) روبرت موريس برج . (٢) جون كليفلان كوثران .

هذه الآراء التي يقدمها العلماء لا تثبتها هنا لنؤكد حقيقة غائبة، ولكن لكي نفهم كيف يتطور العلم اليوم فيصل إلى الحقائق الأصلية التي جاء بها الإسلام من عند الله، ولنؤكد أن النظرية المادية التي تحاول اليوم أن تنشر سمومها في كل مكان لا صلة لها بالعلم، ولكنها فلسفة وهي أيضا نظرية وليست حقيقة علمية.

يقول (ادوار لوثركيل) وهو من الباحثين الكيماويين الأعمدة: «إن العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد في الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة. ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام، وينضب فيها معين «الذاقة» ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميوية أو طبيعية.

ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون. «ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ولا تزال العمليات الكيميائية أو الطبيعية تسير في طريقها فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون «أزليا» وإلا استهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود.

هكذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية
وهي بذلك تثبت وجود الله لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون
قد بدأ نفسه ولا بد له من مبدىء أو من محرك أول أو من خالق
وهو الإله .

« والواقع أن هذا الكون لا يزال في عملية انتشار » مستمر
تبدأ من مركز نشأته ، واليسر لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم
أن يؤمنوا بفكرة « الخالق » ، وهي فكرة تستشرف على سنن
الطبيعة، لأن هذه السنن إنما هي ثمرة الخلق ، ولا بد لهم أن يسلخوا
بفكرة (الخالق) الذى وضع قوانين هذا الكون لأن هذه
القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول أن يكون هناك خلق
دون خالق ، هو « الله » .

وما إن أوجد الله مادة هذا الكون والقوانين التى يخضع لها
حتى سخرها جميعا لاستمرار عملية الخلق عن طريق التطور -
التأور المادى .

* * *

ويقول كريستى موريسون مؤلف كتاب « العلم يدعو للإيمان » :
« إن العلماء لا يقدرّون أن ينفوا وجود الله . فكل واحد منهم
فى قرارة نفسه يشعر بقوة الإحساس أو الفكر أو الذاكرة ،



والآراء أثبتت تصدر كلها عن ذلك الكيان الذى نسميه بالروح ،
وهم جميعا يعلمون أن الإلهام لا يأتى من « المادة » وأنه ليس
من حق (العلم) أن تكون له الكلمة الأخيرة بشأن وجود الخالق .

«إن كون الإنسان فى كل مكان ، ومنذ بدء الخبايكة حتى الآن ،
قد شعر بخافز يحفز به إلى أن يستنجد بمن هو أقوى منه وأقوى
وأعظم ، يدل على أن «الدين» فطرى فيه ويجب أن يقر العلم ذلك .

ويتساءل : ما هو الكائن الحى هل هو عبارة عن ذرات
وجزيئات ؟ . ويجب : نعم . وماذا أيضاً : شىء غير ملموس ،
أعلى كثيراً من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شىء ، ومختلف
جداً عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن
رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو فيما نعلم ليست له قوانين
تحكمه : إن روح الإنسان هو سيد مصيره ، ولكنها تشعر
بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها ، وقد أوجدت للإنسان قانونا
للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه .

* * *

من خلال هذه المقررات العلمية التجريبية يكشف العلم
عن حقيقة واضحة جلية ويتحول عن غروره وصلفه ، ويتنكر

للدعاوى التى طالمآ حمل لواءها خصوم الأديان وخصوم الأمم
الناهضة من أجل إثارة الشبهات فى نفوس بنيتها وتحطيم معنوياتها
وتدمير مقومات فكرها وقيمها .

إن الحقيقة التى لا شك فيها اليوم أن العلم قد تحول
عن المفاهيم المادية الإلحادية ، وأن الفلسفة هى التى تحمل لواء
هذه المفاهيم .

فلقد وصل العلم إلى أن الإنسان مركب من بدن ونفس ،
ومن جسم وروح : البدن من عالم المادة لأنه يمتاز بالخصائص
المعروفة للأجسام ، أما النفس أو الروح فإنها من عالم آخر يختلف
فى خصائصه عن المادة .

كما تحول العلم من مفهومه عن عالم الغيب ، أو الميتافيزيقا ،
 « فقد كان الظن إلى عهد قريب أن (المادة) لا تنقسم إلى ما لانهاية
 بل تقف عند حد لا يتجزأ ، هو الذى سموه (الذرة) أو (الجوهر الفرد)
 ثم أثبت العلماء أخيرا : أن الذرة قابلة للتجزئة ، فبعض
 الذرات يتفجر من تلقاء ذاته مثل ذرات الراديوم واليورانيوم
 وغيرها ، واتضح أن الذرة تتحلل إلى ثلاثة أجزاء أو أشعة ،
 وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها
 فى أغراض الحرب والسلم » (١) .

٦ هذه هى الحقيقة التى قلبت موازين الفلسفة المادية رأسا
 على عقب :

« إن مفهوم المادة القديم قد تغير وأصبحت المادة طاقة » .
 وبذلك سقطت تلك الحتمية التى ذهب إليها غلاة المادية فى القول
 بأن المادة هى كل شيء ، وهى أصل العقل والشعور ، وأن العقل
 ليس إلا إفرازاً من إفرازات المخ .

لقد أصبح هناك عالم خطير غيبي لا يعرف العلماء كنهه ،
 ولكنهم يشيرون إليه .

(١) الدكتور أحمد فؤاد الأهلوانى: (المذهب المادى فى العصر الحاضر) .

ليست هناك طاقة ومادة، وإنما هناك طاقة مجمدة تأخذ صورة
المادة ، أو مادة مشعة تأخذ صورة الطاقة والانتقال من إحدى
الصورتين إلى الأخرى مستمر ومتواصل ويخضع لقانون ثابت .
يقول الأستاذ أحمد حسين : « لقد مضى العلم التجريبي في سيره
نحو الأصول الأولى للمادة أو الطاقة فإذا هي الإشعاع، والإشعاع
أحد عناصر الضوء فالضوء هو الأصل ، وهو نقطة الابتداء .
وهكذا انتهى العلم التجريبي إلى ما انتهى إليه العلم النظري
من قبله ، وإلى ما انتهى إليه الوجدان الإنساني قبلهما
من وحدة القوة الكونية الخالقة .

وقد أثبت العلم أن كل ما كنا نتصوره ضدين متقابلين ليس
إلا أموراً نسبية بحثة بالقياس إلى الإنسان : البرودة والحرارة ،
اختلاف الألوان ، الأشعة : الحمراء والصفراء والخضراء .
دل ذلك على أن الأمر كله هو إشعاعات تدرك العين
الإنسانية بعضها ولا تدرك البعض الآخر ، فترى ظلاماً ما لا يعد
في دنيا الطبيعة بظلام .

فالوجود كله مشتق من الضوء أو كما يقول القرآن :
« الله نور السموات والأرض ،



وهكذا تؤدي بنا الطرق إلى قيام الطبيعة على جوهر واحد
وقوة واحدة (١)

* * *

سـ ويقول دكتور عماد الدين خليل: «إن «المادة» التي يركز
عليها القانون الطبيعي قد حطمها اليوم العلم نفسه، لم تعد العينة
الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة، لقد كشف العلم الحديث
عن جانب خطير من القانون الطبيعي وعلينا أن أساس الطبيعة
هي الحركة، وليست المادة الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر
تتحرك فتضفي الشكل المادي للأشياء، وهذه الذرات هي التي
تشكل وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي، وهو إيمان عجيب
للإنسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين
وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت .
إن «الحركة» بهذا المعنى الكبير، هي أساس الوجود المادي
تماماً كما هو أساس الوجود المعنوي»

* * *

٦ وعندما يتقرر هذا المفهوم علمياً وقد تقرر، فإن ضربة قاتلة
(١) كتاب «الامة الإنسانية».

تصيب الفلسفة المادية ، كما تصيب « العلمانية » وهي نصر مبين
لليتافيريقا وللغيب ولعالم ما وراء المادة .

ومن هنا تسقط الكلمة الساخرة حول « الغيبيات »
وهي التي تقال في مجال اتهام الدين أو رفض مقرراته وخاصة
فيما يتعلق بالالوهية والوحي وإعادة الله للخلق وللبعث والجزاء .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « إن الغيب الذي
تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس
هذه المادة المادية المنفعلة بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة .
وله أسلوب في تصرفاته مبين للطرائق التي تؤثر بها المادة
فيما حولها .

« القوة التي يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة
تقصد ما تفعل وتتصرف بمحض إرادتها ومشيتها .

وهي ليست قوة منطوية على نفسها، منعزلة عنه وعن العالم ،
بل يرى أن لها اتصالا معنويا به وبالناس تسمع نجواهم ، وتعنى
بآلامهم وآمالهم ، وتكشف عنهم الضر .

« القوة التي يقدمها المتدين ليست فكرة مجردة ، وصورة



عقلية محضة ، بل هي حقيقة خارجية ، هذه الحقيقة ليست مادة
يقوم عليها الحس بل هي سر غيبي لا تدركه الأبصار .

« هذه القوة الغيبية : قوة عاملة تتصرف بالإرادة ، لا بالضرورة
كالمغناطيس والكهرباء ، ولها عناية مستمرة بشئون العالم الذي
تديره وأن لها تجاوبا نفسيا مع نفوسه .

« والمتدين يرى وراء كل حس معنى ، وياتمس تحت كل ظاهر
باطنا ، ويضع في مبدأ كل فعل فاعلا ، معتقدا أنه لا يقع في الكون
شيء من دقيق الحوادث وجليلها إلا والله فيه قضاء وتدير .

والدين هو الاعتقاد بوجود « ذات غيبية علوية » لها شعور
واختيار ولها تصرف وتدير ، للشئون التي تعنى الإنسان ، وهو
اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية رغبة ورهبة
في خضوع وتمجيد وهو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة .

ويقول : إن مطاب الألوهية مطاب توافرت عليه الفاسفات
والنبوات ، وإن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق ،
وإن بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات .

وإنما اختلف الناس في الاستنباط والاقتناع ، فهناك من
استمد إيمانه من مشاهد الطبيعة وتجارب عالم الروح ، إن آيات
الألوهية مبثوثة في كل مكان وإن وسائل الناس إلى معرفتها
مختلفة (١) .

* * *

ومن الحق أن يلتبس الناس مفهوم « الله » سبحانه وتعالى من
القرآن الكريم ، بعيداً عن الخوض في النظريات الفلسفية
والأساليب المنطقية ، ومن خلال نظرة عميقة نجد أن العقيدة
في « الله » سبحانه وتعالى في الإسلام :

- ١ - الاعتقاد بوجوده الواجب لذاته غير المستمد من سواه
ووصفه - جل وعلا - بصفات الكمال كلها نتيجة للنظر في هذا الكون .
- ٢ - نفي صفات المشابهة والنقص عن الخالق - سبحانه - فالتجسيم
منفي عنه لأن المادة تتحول والخالق بعيد عن وصف التحول
والتعدد منفي عنه لأنه تركيب والإله لا بد أن يكون واحداً
والأبوة والبنوة بعيدان عن صفاته لأنها تجزئة وانفصال
والخالق لا يتجزأ .

٣ - عدم التعرض للحقيقة والماهية في الذات أو الصفات

(١) « الدين » : كتاب بقلم الدكتور محمد عبدالله دراز .

من حيث هما ، مع الاحتراس الدقيق بتقرير المخالفة التامة بين ماهية ذات الإله وصفاته وماهية المخلوقات وصفاتهم يقول القرآن الكريم في سورة الأنعام « ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق کل شيء فاعبدوه وهو على کل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١) .

وفي الحديث : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتلهكوا » (٢) .

ومن البدهى أن هذا الموقف لا يؤخذ على الإسلام في شيء ولا يقال إنه حجر على العقول أو انتقص من حرية الفكر ، فالعقل البشرى وهو عماد العقيدة في الإسلام يقف إلى الآن موقف العجز المطلق أمام حقائق الأشياء جميعا وكل الذى وصل إليه إنما هو الخواص وبعض الصفات والآثار .

٦ أما البسائط المجردة فلم يصل إلى حقيقتها بعد .

وما كان الإسلام ليكلف الناس ما لا تستطيع أن تدركه العقول والأفهام .

٤ - رسم الطريق إلى معرفة صفات الخالق وإدراك كمالات الألوهية ومميزاتها وآثارها ؟ والوصول إلى ذلك عن طريق النظر

(١) الأنعام (١٠٢ - ١٠٣) .

(٢) أبو نعيم « في الحلية » ، والاصبهاني في « الترغيب والترهيب » .

في الكون نظراً صحيحاً وتحرير العقول والأفكار من الموروثات
والأهواء والأغراض حتى تصل إلى الحكم الصائب .

والقرآن يحث دائماً على النظر في المكونات والتأمل في المخلوقات
ويرفع من قيمة العقل ويعلي من قدر الفكر حتى لقد ذكر العقل
في أكثر من أربعين موضعاً من القرآن مقروناً بالتبجيل والتكريم
والحث على الجد إلى إدراك الحقائق وكشف مستورات الوجود .

٥ - تقوية الصلة بين الوجدان الإنساني والخالق جل وعلا
حتى يصل الإنسان بذلك إلى نوع من المعرفة الروحية هو أعذب
وأصدق أنواع المعرفة جميعاً ، وذلك أن الوجدان الإنساني أقدر
على كشف المستورات غير المادية من الفكر المحدود بقيود المادة
ونتائج الأقيسة الحسية .

٦ - مطالبة المؤمنين بأن تظهر في أقوالهم وأفعالهم آثار هذه
العناصر العقيدية فالمؤمن متى اعتقد أن خالقه قادر كانت النتيجة
العملية لهذه العقيدة أن يتوكل عليه وأن يلجأ إليه ، وإذا اعتقد
أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته وإذا اعتقد أنه واحد لم يدع
سواه ولم يسأل غيره ولم يعرف وجهة إلا إليه . (١)

(١) عن إمام كبير .

٦ لقد حرص الإسلام أن يؤكد هذا المنهج الذى يقوم على « التفكير فى خلق الله لا فى ذات الله » .

فقد رسم القرآن : ميثافيزيقا كاملة للمسلمين لم يعودوا بعدها فى حاجة إلى شىء فى هذا المجال :
فقد قررت هذه الميثافيزيقا القرآنية :

أن الله ذات وصفات ، وأنه خلق هذا العالم من لا شىء ، وبعد أن لم يكن ، خلقه من العدم والله هو الخالق لكل مايجرى فى العالم من تغيرات ويمكنه أن يعدمه كلياً أو جزئياً . وهو مصدر النعم وهو الرحمن الرحيم ، وأن البعث حق والبعث هو بعث الأجساد والأرواح معا .

وأن الأحجار والنباتات والكواكب والحيوانات والإنسان لا تستحق العبادة وما من إنسان يصح أن يعبد .

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » .

ويؤكد النبي محمد نفسه وهو خاتم المرسلين أنه ليس إلا بشر مثلكم ، وإنما الإله الحق هو خالق الإنسان وخالق العالم كله .
وإن الله بهذا المعنى ، معنى أنه مؤلف هذا الكون وحافظه

ومدير شئونه وأنه مستغن بذاته عن كل ما عداه ، هو أرقى مفهوم عرفته البشرية للإله الواحد .

وهذه النظرة القرآنية الإنسانية تدحض كل النظريات الفلسفية الوثنية واليونانية والمجوسية والمحدثة التي تحاول أن تصور الله في صور مضطربة بعيدة عن الحق ، وبهذا يدحض المفهوم الإسلامى نظريات :

التعدد ، وإله الخير وإله الشر ، وعبادة الأبطال وأنصاف الآلهة ، وعبادة العقل ، وعبادة القوة ، وعبادة الجمال ، ونظرية الإله اليونانى الجبار المرعب والإله الذى توهمه (أرسطو) (١) الذى لا يعلم الجزئيات ونظرية وحدة الخالق بالوجود ونظرية قدم العالم وعشرات من النظريات الفلسفية الضالة التى عرقها الأمم والشعوب .

فالله هو خالق الأسباب والعلل ومقدر سنن الكون والطبيعة وقوانينها : « فهو القوة الخالقة المبدعة ، القوة الخالقة للأشياء والأسباب ، والمقدرة لهذه الأسباب أو لهذه السنن المطردة والقوانين المنتظمة ، فالسبب أو القانون نفسه ليس قوة عاقلة

(١) الله عند أرسطو هو المحرك الذى لا يتحرك

عقل محض ، (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) .



مدركة خالقة مبدعة ، بل هو نفسه جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من الأسباب والسنن والقوانين .

ولذلك لم يكن في العقلية الإسلامية تعارض بين العلم المبني على البحث في سنن الكون وأسبابه والإيمان بالله ، بل هناك ارتباط وثيق بين الكون وما فيه من سنن منتظمة من جهة والله المحيط بها كلها والخالق لها من جهة أخرى .

٦٠ « والله في العقيدة الإسلامية يتصف بالقدرة والحياة والعلم لأن نتائج خلقه وصنعه تدل على أنه خالق يصدر عن عالم بما يخلق (ألا يعلم من خلق) محيط بالكون الذي خلقه ، مدرك لما فيه من سنن .

٦١ أما إله الفلاسفة فهو علة نهائية (أو قوة كامنة) غير عاقلة ولا مدركة اقترضوا وجودها في الأشياء وهي نفسها في حاجة إلى تفسير وتعليل ما دامت غير محيطة ولا مدركة ولا واعية »

« والله في العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الكون (خالق) لأصل وجوده ومقدر لسننه ونظامه (وخلق كل شيء فقدره تقديرًا) وما دام هو الخالق له فهو المالك له والمتصرف به والقادر على توسيعه وزيادته ، وعلى إبادته وإفناؤه ، وما دام



هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه كذلك واستمراره والقادر على إلغائه وتبديله (له الخالق والأمر) .

« فكل خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميسه وقوانينه ليست إلا مخلوقة مقدرة والله مسيطر عليها وليس هو جزءا منها وليس هو سببا من جملة الأسباب ولا علة من العلل فالأسباب والعلل والقوانين والنواتج كلها مخلوقة خاضعة فهي من خلقه وتقديره .

« والكون منتظم لا فوضى ، ولكن انتظامه مرتبط بإرادة الله، وقدرته واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئته العليا .

إن كل تعاليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعاليل ناقص ، لأن القانون واقع يحتاج إلى تعاليل ، وليس القانون موجد للحادثة من العدم وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعاليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة .

« ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متما ومكملا لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين فهي محتاجة إلى وجوده ، مفتقرة إلى استمرار إمداده وعنايته ، مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره .



فالكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته وهو ملك له وعاليه
انبسط سلطانه « (١)

* * *

ومن هنا يتبين أن « التوحيد » حقيقة فطرية لا سبيل إلى
تجاوزها ، بالتعدد أو بالإنكار .

« والعقيدة في الله عنصر ثابت في النفس البشرية ، قائم
في صميم الفطرة يهدي البشرية إلى خالقها ، هذه العقيدة لم تتطور
كما يزعم أصحاب المذاهب الفلسفية من عبادة الآب وعبادة
الطوطم وعبادة الوثن إلى التوحيد ، وإنما العكس هو الذي
كان في الحقيقة . فقد بدأ العالم موحدا وبدأ الإنسان موحدا
ثم انحرف عن العقيدة الصحيحة وليس صحيحا في وقائع التاريخ
أنه مرت على البشرية مجموعة من العقائد الوثنية انتهت إلى التوحيد
وإنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت في دورات متوالية
من الإيمان والإلحاد والتوحيد ، والتعدد والتجريد والتجسيم .

(١) عن كتاب نظام الإسلام (العقيدة والعبادة) للدكتور
محمد المبارك .

أما نزعة الإلحاد التي يشهدها العصر فإنها تتطور طبيعى
بالنسبة للتحديات التي واجهت الحضارة والنهضة نتيجة مفاهيم
مضطربة عن مضمون الدين الصحيح . هذه المفاهيم هي التي
خلقت ذلك التناقض بين العلم والدين ، وبين التوحيد والوثنية .

وقد جاءت الدعوة الحادة إلى إنكار الدين وعزله عن الفكر
الغربي نتيجة هذه الخصومة العنيفة التي وقعت بين العلماء
التجريبيين وبين الكنيسة الغربية ، وكان من نتائجها ظهور الفلسفة
في محاولة وضع منهج عقائدى يغنى عن الدين في البيئة الغربية .

7 ومن هنا نجد ذلك التحدى الواضح في مختلف النظريات
التي راجت في السنوات المائة الأخيرة فهمى جميعا تشجب الدين
سواء أكانت نظرية في الاقتصاد أو في النفس أو في الاجتماع
أو في السياسة وهي لا تعنى بالطبع (الدين) بمفهومه العام أو مفهومه
الأصيل ، ولكنها تعنى « الدين » بمفهومه الذى واجهته .

7 ومن هنا فإن انسحاب هذه النظريات على الدين بعامه وعلى
الإسلام بخاصة فيه تجوز كبير ، وفيه مغالطة وتمويه بالغان وإنما
يراد بذلك استخدام هذه المادة لإثارة الشبهات .
ومن الحق أن يقال إن الغرور قد ركب الكثيرين على أثر

الكشوف العلمية مما سوغ لهم تأليه العقل ، أو إنكار كل ما لم يصل العلم فيه إلى رأى وكان من أخطر السهوم المسمومة التي رمى بها البعض : إنكار العالم الغيبي « الميتافيزيقا » .

ولكن العلم لم يثبت أن تنازل عن غلوائه وخفض من كبريائه وعاد ليؤمن بالقوة الخفية على النحو الذى سجله العلماء فى السنوات الأخيرة ، وخاصة بعد انفلاق الذرة ، وما تقرر من أن العالم كله مشتق من النور ، والنور حقيقة غيبية لا سبيل إلى إخضاعها للمختبرات والمجاهر والأناييق .

غير أن الفلسفة لم تلبث أن حلت محل العلم فى دراسة الغيبيات وأنها قامت أساسا على الأساس المادى الذى لا يعترف إلا بالمحسوس والمرئى وبذلك عجزت عن أن تقول كلمة نهائية .

٦ وبقى من وراء الفلسفة أصحاب القوى الهدامة الداعون إلى تدمير العالم والسيطرة عليه .

إن هدف النزعة المادية الفلسفية التى هى ليست فى الحق علما ، إنما يستغلها اليوم أعداء الإنسانية فى دعواتهم الهدامة المدمرة ، وذلك لإخراج أجيال منمارة مستسلمة مستعبدة للأوهام ، فاقدة لشخصيتها ووجودها ومقدساتها .

ومن هنا يجيء الخطر في القول بأنه لا يوجد عالم وراء هذا العالم ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى إنكار الله والوحي والنبوة والقرآن والبعث بعد الموت والجزاء الآخر .

ومن هنا فإن المعرفة الأصلية إنما تقوم على أساس تكوين الإنسان نفسه (روحا ومادة) : وهي المعرفة العقلية والمعرفة المستمدة من الوحي والبصيرة .

ولا شك أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة ولكنه ليس سلاحها الوحيد ، ومن الخطأ القول بأنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة وأن ما عداه ليس شيئا .

يقول جيمس جنتز (العالم الفلكي الكبير) بعد دراسة علمية استمرت خمسين عاما : « إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود الله » .

[ويقول سومرست موم : إن الغرب قد نبذ اليوم إلهه ، وآمن بإله جديد هو العلم ، ولكن العلم كائن متقلب فهو ينفي اليوم ما أثبتته بالأمس ، ويثبت غدا ما نفاه اليوم ، لذلك نجد عباده في قلق دائم لا يستقرون .

* * *

ولا شك أن القول بأن الدين يلغى العلم أو العكس إنما هو خطأ ويرى الدكتور عماد الدين خليل أن هذا هو الشرك الذي تنصبه القوى الاستعمارية ، فالخطر في قبول دين يرفض العلم أو قبول علم يرفض الدين .

أما العلم فهو طاقة من طاقات الإنسان .

وأما الدين فهو منهج ، منهج كامل للحياة البشرية يسعى إلى تنظيم علاقات الإنسان ، ليس بالطبيعة فحسب بل بكل ماله علاقة به : (النفس ، الأسرة ، المجتمع ، الأمم والشعوب ، الطبيعة ، العالم ، الأشياء) .

٦ والعلاقات تنبثق من إيمان وإدراك بالله سبحانه والتزام مسئول لمنهجه تعالى .

٦ « العلم علاقة واحدة من مجموع علاقات جاء الإسلام لكي ينظمها ضمن نظام كامل قوامه تصور كامل لوضع الإنسان في الكون ومن ثم فليس للعلم أن يكون منهجا أو ديناً للإنسان ، لأن الجزء لا يستشرف الكل . وأن علاقة واحدة لا تستطيع أن تحدد شكل ومصير علائق أخرى .

« يستطع العلم أن يضع منهجا في التعامل مع الطبيعة والأشياء ولكن ليس مع الناس والغيب والأمم والشعوب .

« إن العلم لم يستطع حتى الآن أن يضع منهجا للتعامل مع الطبيعة نفسها ، وإنه لم يستطع السيطرة على معطياته وإلزامها بإسعاد الناس فحسب .

« إن العلم إذا لم تحدّه أخلاقيات ومثل ومعالم توجه العاملين في حقله والساعين إلى اكتشاف عوالمه ، سيغدو طريقا إلى بربرية العصور الأولى .

« إن نتائج العلم تخضع اليوم لسيطرة الساسة والقادة العسكريين الذين تحكمهم الميكافيلية » .

« وهذا التطور العلى ليست له علاقة البتة بتطور عقل الإنسان وروحه .

وما يقوله العلامة كرسى موريسون (رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك) قد يلتقى أضواء كاشفة على موقف العلم من الدين :
«إن تحطيم ذرة (التون) التي كانت أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذهب والكثرونات طائفة ، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة تبديلا جوهريا ، ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي وأن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود مدبر جبار ، وراء ظواهر الطبيعة .

* * *

إن الاكتشافات الحديثة قد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة والتي كانت قد حجبتها تماما نظريات (دارون) .
إن وجود الخالق تدل عليه منظمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة .

٦ إن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذاته إنما هي جزء من برنامج ينفذه باري الكون .

* * *

إن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدى إليه
إلا إذا صحبه في تلك الغاية قلب ، اهـ .

* * *

ونحن حين نورد هذه الآراء لا نحاول أن نستشهد بها على وجود
الله تبارك وتعالى ولكننا نقدمها تكديبا للقائلين بأن العلم مازال
ماديا، ينكر الغيب ، ونقول : إن العلم قد تحول عن نظرتة القديمة .
أما دعاة المادية والإلحاد وإنكار الغيب وما وراء الغيب
من بعث وجزاء فإنما هم الفلاسفة أصحاب المذاهب الهدامة التي
ترمى إلى تدمير مقومات الأمم .

ونستطيع أن نقول في هذا المجال الذي فتحه رجال العلم نحو
الغيب : إن الإسلام هو دين الفطرة ، والفطرة ليست عقلا صرفا
ولا عاطفة محضا ، وإنما هي مزيج من العقل والعاطفة إذا التقيا .
تلك هي الفطرة مركوزة في النفس البشرية :
« فطرت الله التي فطر الناس عليها » .



القضية الثانية

الإسلام والدين

٦٦ + إن الهجوم على الأديان بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة هي ظاهرة واضحة من ظواهر التحديات العصرية التي تواجه الأمم والشعوب ، إن هناك اتهامات خطيرة توجه إلى الدين ، فهو في شبهاتهم لم ينزل من السماء وإنما أوجده الإنسان نفسه ، أو هو مخدر خادع لإرضاء الضعفاء بسيطرة الأقوياء ، أو أنه بدأ وثنيا ثم تحول إلى التوحيد ، أو قولهم إن هناك شعوبا لم تعرف التدين .

* * *

والحق أن الاتهامات الموجهة إلى الدين إنما جاءت في ظل تحديات نفسية واجتماعية واجهت المجتمعات الغربية ، ولم تكن خالصة أو محررة في تقدير هذه الحقيقة التاريخية والإنسانية الخطيرة ، فمنذ فجر البشرية تطامع الإنسان إلى الله الخالق يلتمس تلك الرابطة بين صانع الأكوان والخلائق :

بين الواحد الأحد وبين الإنسان : سيد الموجودات ، خليفة الله في الأرض ومنفذ إرادته وحامل أمانة المسؤولية .

ومنذ خلق الله آدم (قبضة من التراب ونفخة من الروح)
وعليه الأسماء كلها ، أصبح هذا الإنسان والنبي في نفس الوقت :
حامل رسالة التوحيد إلى البشرية .

وكذلك كان «الدين ظاهرة اجتماعية» أصيلة رافقت البشرية
منذ أول نشأتها فلم تخل جماعة من دين ، وكان التوحيد هو منطلق
العقيدة ، ثم لم يلبث الإنسان أن انحرف عنه ، وعبد الأوثان
وتوالى الرسالات السماوية لتخرجه من الظلمات إلى النور .

فالحقيقة الأولى هي التوحيد وليس الوثنية ، والتوحيد هو
عبادة الله الحق وليس عبادة الأصنام ، وقد تأكدت هذه الحقيقة
في آيات القرآن ، وكشفت عنها كثير من الحفريات والأبحاث
الأنثروبولوجية ، "بحيث لم تعد لتلك الآراء التي رددتها بعض
خصوم الأديان نصيب من حق أو صدق .

فقد بطل ما ادعاه هؤلاء بتدرج البشر من معتقد قوامه
السحر والكهانة والتنجيم والتائم والطقوس إلى عقيدة التوحيد ،
ذلك أن الإنسان بدأ موحداً ، وآدم عليه السلام أول من حمل
رسالة التوحيد إلى الناس ، أما السحر والكهانة والتنجيم والتائم
فتلك إنما تمثل تحولات الإنسان من التوحيد إلى الوثنية تحت
تأثير الانحراف عن الدين الحق .



لا شك أن الدين هو إحدى ضرورات الإنسانية حتى ليقول
« بلوتارك » المؤرخ الروماني : من الممكن أن تجد مدنا بلا أسوار ،
وبلا ملوك ، وبلا ثروة ، وبلا آداب ، وبلا مسارح .
ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا دين ، أو لا تمارس العبادة ،
فالدين طابع الإنسان .

“Man is incurably religious”

ويقول اللواء طه الهاشمي : « الدين مؤسسة اجتماعية لا تستغنى
عنها أية جماعة بشرية مهما كانت بدائية ، وفكرة الدين مندجمة
بالإنسان منذ أول نشأته . وليس بين المؤسسات الاجتماعية
مؤسسة تضاهي سلطان الدين في سيطرته على الأفراد ، وزجرهم
وكبح جماح غرائزهم سواء أكان الفرد بدائيا أو متمدنا .
وقد أقرت الأديان السماوية المنزلة ثلاث قواعد أساسية :
التوحيد : (وحدة الله) ، إلغاء عبادة الأصنام ، الاهتمام
إلى حقيقة وجود الله عن طريق التأمل والبصيرة .
ويقول الدكتور « عمر فروخ » : إن الأديان السماوية قد جاءت
لترقية الإنسان من التجسيد المادي للقوى الطبيعية إلى التجريد
الروحي للمدارك الإنسانية .

فقد كان اهتمام الإنسان القديم يكاد يقتصر في الحياة الدينية إلى التطلع إلى الغيب . وقد وجهت الأديان السماوية اهتمام الإنسان المؤمن إلى الجانب الاجتماعي الذي يدور على نفع الناس بعضهم لبعض، والتأكيد على الجانب الأخلاقي لأنه أساس الصلة بين الأفراد وأساس المجتمع السليم ، والسلوك العاقل في الحياة لاستقرار الصلات بين الجماعات وتنشئة أجيال صالحة للعيش في مجتمعات متجاورة على الألفة والمحبة، والتأكيد على نظام متماسك من العبادات والمعاملات يكون نظاماً حول المجتمع ، وزاجراً عن الهجوم على المجتمع .

فقد حاولت الأديان السماوية أن تنقل الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه من الفوضى إلى النظام ، ومن الاضطراب إلى الاستقرار ، ومن التغالب إلى التعاون ، ومن الخيال النظري إلى الواقع العملي ، ومن الخرافة إلى الحقيقة .

وليس كتاب العرب والمسلمين وحدهم هم الذين يعترفون بالحقيقة الدينية، ولكن كثيراً من منصفى كتاب الغرب يرون ذلك . يقول (ارنولد توينبي) في كتابه « العادة والتغيير » :
التدين جزء من الطبيعة البشرية والإنسان لا يستطيع أن



يعيش بغير دين من نوع ما ، فقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار .

أما الأيدولوجيات الجديدة فإنها لا تستطيع أن تعطيه هذه الحقيقة لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحه إياه الأديان .

^٦ لقد وجدت الأديان لتحرر الإنسان من آسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسؤولياته ، وقد استطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الأيدولوجيات الحديثة .

لقد منحه الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخلق بالطموح ، ومنحه الراحة النفسية وحررته من سجون المجتمع .

ومن الحق أنه لا غنى للإنسان عن الدين ولن يستطيع الأيدولوجيات أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة والتحرر الروحي .

إن نقطة ضعف الأيدولوجيات هي منافستها للأديان العليا ^٦ على اكتساب ولاء الجماهير ، وهذا معناه العودة إلى « عبادة الإنسان » فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية



الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة ، فتضاءل ليصبح نملة اجتماعية في مجتمع النمل .

* * *

ويرى كثيرون مثل مايرى (توينبي) : «يرون حاجة البشرية دائماً إلى دين ، وأن الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغنى عنها أى مجتمع بشرى . وأن فكرة الدين متأصلة في نفوس البشر بحيث لم يقم مجتمع بشرى في العالم إلا وهو مشبع بفكرة الدين» .

يقول (ماكس مولر) : «إن الدين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها ، وأن فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى . وقد بدا للمؤرخين المحققين أن جميع الأقاليم المتحضرة والبدوية كانت تؤمن بقوة عليا وتعبدها» .

ويقول (بنيامين كونيستان) : «إن الدين من العوامل التي سيطرت على البشر، وإن التحسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة ومن المستحيل أن نتصور ما هية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة (الدين)» .

وعلماء الاجتماع يؤمنون بأن الدين من أهم القواعد التي قام عليها بنية المجتمع البشرى .



ويقول «تايلور»^(١) إن الشعوب البدائية مهما انحط إدراكها فإن لها شكلا من دين ، وقصد بالدين : (الاعتقاد بإله أعلى وبالحساب بعد الموت) .

ويقول « سؤندر بلوم »^(٢) : لم نعثر في أى مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة أو أنه لم يؤمن بكائنات عليا ، إن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين ، إنما استندوا فى دعواهم إلى ملاحظات غير صحيحة .

٦ وقرر علماء الاجتماع المحدثون : عدم جواز وجود مؤسسة تستند إلى الكذب والزيف وأن تستمر وتدوم وقتا طويلا ، وأن تظل على حيوية عظمى ، وعندهم أن الأديان تستند إلى الطبيعة حتما .

ولولا ذلك لاعترضت سبيلها مقاومة قاهرة يتعذر التغلب عليها .

وقالوا : إن الدين استجابة لبعض الحاجات الإنسانية الثابتة .

(١) كتابه : الحضارة البدائية .

(٢) كتابه : مختصر تاريخ الأديان .



وأن في العقل البشرى ميلا إلى التوحيد فهو يطلب دائما .
الوحدة وراء التنوع (١) .

ويقول « أرنست رينان » في كتابه (تاريخ الأديان) :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نخبه ، وكل شيء
نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية
استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين
أو يتلاشى بل سيبقى أبداً الآباد حجة قاطعة على بطلان المذهب
المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدينية
للحياة الطبيعية . »

٦ ويقول (ت . س . اليوت) فى كتابه (آراء وملاحظات
عن الثقافة) : إن الأديان أساس الثقافة وإن كل ثقافة مشتركة بين
الناس تنبع من عقائدهم الدينية ، فالمسيحية هى الأساس الأول
للثقافة الأوروبية بقدر ما كان تغلب الهندوسية على الهند ، العامل
الأول الذى أضفى على الثقافة الهندية خصائصها التى تمتاز بها ،
ويقول : وكذلك الإسلام بالنسبة للعرب والمسلمين .

وليس الدين هو الإيمان الفردى والعلاقة الخاصة بين الله

(١) هاملتون جب .

والإنسان ولكن هذا جانب منه ، أما الجانب الآخر فهو جانب
العلاقة بين الإنسان والناس ويتصل بالخلق والتربية والمعاملات
والشريعة .

ومن هنا نعرف أن كل ما يوجه إلى الدين من اتهامات وشبهات
إنما هو :

أولا - موجه إلى تصور الدين في بيئة ما ، وليس إلى الدين
الحق المنزل ولا إلى كل الأديان السماوية .

ثانيا - إن هذه الحملة لها هدف بعيد المدى ، هو إزاحة الدين
من أجل إذاعة الإباحة والإلحاد ، والقضاء على مؤسسة الدين
في الغرب من أجل تغليب الإمبراطورية الصهيونية الإسرائيلية
على المسيحية والإسلام على السواء .

يقول الدكتور « محمد عبدالله دراز » إنه من المفارقات العجيبة أن يكون ازدياد العلم ونمو المعرفة سببا في نمو غريزية التدين المبينة على طلب الغيب المجهول ، وكلنا لو تأملنا لتحققنا صحة هذه المفارقة ولعرفنا أن تقدمنا الحديث في العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا والإقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون من جانب ما نجهله منه كمثل قطرة واحدة في محيط خضم عميق .

٦ ذلك أن كل باب جديد يفتحه العلم من دلائل عظمة الكون وامتداده يفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة .

« كان اتساع نطاق المعلومات هو نفسه اتساعا لنطاق المجنولات لأن محيط كل دائرة جديدة يماس الحدين بباطنه وظاهره فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها في عالم الشهادة مراحل أخرى في عالم الغيب .

وصدق القرآن « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

٦ وبعد أن وقف التحليل دهرا طويلا عند الذرة "Atome" على أنها الحد الأدنى الذي لا يقبل الانقسام أو الفناء والذي يحتفظ بكيته وخصائصه تحت تأثير كل القوى الطبيعية وفي أثناء

جميع التفاعلات الكيميائية أصبحت اليوم هذه الذرة نفسها عالماً معقداً . مركباً من نواة جامدة وغلاف يدور كما تدور السيارات حول الشمس وتبين أن هذا الغلاف الذى هو جزء من تركيبها ما هو إلا شحنة كهربائية سالبة مجردة من كل حامل مادي ، وأنه يمكن فصله عنها بقوة إشعاعية أو بتسخين هائل .

« النواة نفسها : التى كانت تعد إلى عهد قريب متماثلة الأجزاء ، أعنى ذات قوة إيجابية فحسب ، قد ظهرت الآن مركبة بدورها من نوعين من الكهرباء : موجب وسالب .

٦ وثبت أنه من الممكن تحطيمها وفصل أجزائها وأن القوة الإشعاعية الهائلة التى تستنبط من هذا التحطيم يمكن استخدامها فى إصلاح الكون وتعميره أو فى إفساده وتدميره .

وهكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار وتنكشف المادة عن أصلها الأصيل فإذا هى (طاقة) أى قوة مجردة ، يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادي المحطم .

٦ وهكذا يقرب عالم المادة رويدا رويدا من عالم المجردات ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى كما يتصل به من جهة حده الأعلى وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره لأنه يحس أثره ويلس خطره .

أجل أصبح العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها
الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر المزود بأدق المقاييس
والموازين . أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي
المعيار الوحيد للتوحيد وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القاعدة
التي تقوم عليها (الأديان) .

ويقول « سبنسر » عن المجهول : إنه تلك القوة التي لا تخضع لشيء
من العقول ، بل هي مبدأ كل معقول ، وهي المنبع الذي يفيد عن
كل شيء في الوجود ، أليس هذا المجهول هو بعينه موضع
الديانات ؟ وقال ليتريه : إنه حين بحثه في العلوم الواقعة رأى نفسه
محوطا من كل جانب ببحر لجى من الأسرار الغامضة وهو
لا يملك سفينة يخوض بها لجته وليس معه إبرة يتعرف بها
وجهة سفره .

ومن هنا فالدين هو قوة الفطرة الغالبة ، القائمة على نزعة
الإيمان بالغيب والتطنع إليه من ناحية طرفيه : الماضى والآتى .
وهكذا سقطت نظرية الإنكار المادى لما وراء الحس
يقول الدكتور دراز في كتابه القيم عن « الدين » :

ليس هناك قوة أخرى على وجه الأرض تكافئ قوة الدين
أو تداينها في كفالة احترام القانون وضمنان تماسك المجتمع
واستقرار نظامه .

والعلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير كما يصلح للبناء والتعمير ولا بد لحسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الفساد والشر ، ذلك هو العقيدة والإيمان .

من أجل ذلك كان الدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قوانين العدالة والصفة ، وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية ، وقد نشأ الدين حقيقة أولى زمانية تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب ، ومن هنا خطأ القول بأن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال . (وهي آراء سبنسر وتياور وفريزر ودوركايم) .

إن هناك نظرية أخرى قال بها بعض الباحثين إن عقيدة الخالق الأعظم هي أقدم ديانة ظهرت في البشر مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

— } ويقول : إن نظرية فطرة التوحيد وأصالتها قد انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ومن أشهر مشاهيرهم :

● (لانج) الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل
الهمجية في أستراليا وإفريقيا وأمريكا .

● (شريدن) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة .

● (بروكمان) الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام .

● (لرواه، وكاترخام) اللذان وجداهما عند أقزام أو ساط إفريقيا .

● (شميدت) : وجدها عند الأقزام وعند سكان أستراليا
الجنوبية الشرقية وقد أشار شميدت إلى أن فكرة الإله الأعظم
توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس البشرية .

وقال الدكتور (دراز) : إن الرشد والضلال في الفكرة الدينية
ليسا ظاهرتين متعاقبتين فقط صعوداً وهبوطاً بل هما ظاهرتان
متعاصرتان موزعتان في كل أمة وجيل .

٦ وقد اتفق مؤرخو الأديان على أن أشد الشعوب همجية
ووثنية لم ينفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب .

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلوا »

وبدأوا على الحق ، ثم جاء الانحراف والاختلاف عرضاً طارئاً .

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه » والكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية
الأولى لم تترك شأنها تستلهم غرائزها وحدها ، بغير مرشد

ومذ كر بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم فكان
أبو البشر : هو أول الأفاض الملهمين وأول المؤمنين الموحدين .
ولا شك أن وسائل العلم البشرى عاجزة عن تحديد نقطة البدء
الحقيقي للدين وكل ما كتب في ذلك هو افتراضات ، ويقول
(سالمون رينال) : إنه لا توجد أمانة واحدة تدل على أن فكرة الدين
ستزول من الأرض قبل أن يزول الإنسان ، وأنه ستبقى في الكون
دائما أسرار ومجاهيل ، وأن العلم لن يحقق أبدا مهمته على وجه
الكمال .

ويقول : العلامة (محمد فريد وجدى) : نعم : يستحيل
أن تتلاشى فكرة الدين لأنها أرقى ميول النفس وأكرم
عواطفها ، ففطرة الدين تلاحق الإنسان مادام ذا عقل يعقل به
الجمال والقيس و ستزداد فيه هذه الفطرة وتعمق على نسبة علو
مداركه ونمو معارفه .

ويرى كثير من المؤرخين والباحثين أن الأخطار التي أملت
بالعالم المعاصر إنما جاءت نتيجة نظرة الإلحاد والإباحة التي أخذت
تسيطر على البشرية في الأجيال الأخيرة .

(فروبرت ملىكان) العالم الطبيعي الكبير يرى أن أهم أمر
في هذه الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيم الأخلاق .

ويقول : لقد كان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة ،
فإذا لم تجتهد البشرية الآن لاكتسابه وتقويته فإن يبقى للعلم قيمة
بل يبقى نكبة على البشرية .

وقد أشار القائد بيتان إلى هذا المعنى في بيانه الذى وجهه
إلى الأمة الفرنسية على إثر هزيمتها ١٩٤٠ حين قال : إننى أدعوكم
أول شيء إلى نهوض أخلاقى .

ويقول القائد العالمى مونتيجرى :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى ،
ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل
إلا عن هذا الطريق ، إن خطر الانحطاط الخلقى فى أفراد الجيش
أعظم من خطر العدو ، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر فى معركة
إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شيء . » .

٧ ويقول الدكتور (مونتيجرى وات) فى كتابه « الإسلام
والحضارة » : « لقد كان الدين على مر العصور هو الجوهر الوجود
أرواح العالم ، وكما يتهاوى جسد الإنسان بعد خروج الروح منه فإن
العالم ينهار إذا ما زال الدين منه ، أى أن العلاقة بين الدين والوجود
خالدة خلود العلاقة بين الجوهر والعرض . » .



ويجمع العلماء على أن أهمية الدين في بناء المجتمعات إنما يرجع إلى قدرته على إقامة التعاون بين أعضائه ، حيث يتم هذا التعاون بقانون ينظم علاقاته ويحدد واجباته وحقوقه ، وأن الدين يعمل على تهذيب السلوك وتصحيحه ، وتطبيق العدل ومقاومة الفوضى والفساد ، كما أنه يربط بين قلوب معتنقيه برابط المحبة والتراحم وهو رابط لا يعدله رابط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار ، وليس على وجه الدين قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفاءة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه والتنام أسباب الراحة والطمأنينة فيه ^(١) .

✓

(١) راجع الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « الدين » .

✓

القضية الثالثة

الإسلام والتوحيد

(١)

إن هناك تركيزاً كبيراً ومستمراً وبعيد المدى على الإسلام ، وإثارة الشبهات حوله من حيث القول بأنه مضاد للعصر ، وبأنه دين صحراوي ، أو أنه أدى دوراً تاريخياً وانتهى ، إلى عشرات من الاتهامات البالغة الظلم للحقيقة الإسلامية .

وإن من حق الإسلام علينا أن ننظر إلى مصادر هذه الحملات وهذه الشبهات أساساً قبل أن ننظر إلى مادتها وموضوعها ، فإذا كانت إنما هي بحث علمي أو منهجي يراد به الفهم وتقرير الواقع نظرنا فيه وأوليناه الاهتمام ، أما إذا كان صادراً عن تعصب ديني لا أو خصومة سياسية فإن الأمر فيه يكون واضح الغرض ، ظاهر البطلان .

إن الحملات التي توجه للإسلام إنما توجه من جهات الاستعمار والتبشير والتغريب ، ودعاة المذاهب المادية ، وأصحاب المطامع السياسية في السيطرة ، ومن هنا فإن آراءهم ليست علمية أساساً

ولو غلفت في أثواب ذات مظهر على زائف، هذا فضلا عن خطأ انسحاب النظرة الفلاسفية أو العلمية الغربية للدين كما يراه أهله في الغرب ، انسحاب هذه النظرة على الإسلام يعد مجافاة للحقيقة والواقع .

ذلك للاختلاف الجذري البعيد المدى بين واقع الإسلام وواقع هذه الأديان بالرغم من وحدة مصادرها الأولى .

ويختلف مفهوم الدين : بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي من جهات كثيرة ، وذلك لاختلاف العوامل التاريخية لكل من الفكرين :

٦ . والتعريف الذي وضعه الفكر الغربي للدين لا يمكن أن ينطبق على الإسلام ، ورجل الدين في الفرنسية يوصف بأنه Roligieux ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس وفي الغالب أن هذا الاصطلاح يعنى الزاهد المنقطع في الأديرة .

والفكر الإسلامي لا يعترف أساسا بكلمة رجل دين وليس في الإسلام طبقة كهنوتية ولا مراسم معينة تفرض نفوذها على العلاقة بين الله والإنسان .

وكل مسلم من حقه أن يعرف أصول الدين ، والمتخصصون في هذه الدراسات هم « علماء الدين » لان رجال الدين بحسبانهم قادرون على بحث دقائق أمور العقائد أو الشرائع أو الأخلاق وهي المقومات الأساسية للإسلام .

والإسلام ليس ديناً بمعنى « اللاهوت » في الاصطلاح الغربي فحسب ، فهو دين ونظام مجتمع ومنهج كامل للحياة الإنسانية . ولم يقف الإسلام أمام الحضارة والعلم والمدنية معارضا أو مناهضا ، بل كان هو باعثا هذه الانطلاقة العلمية التي انتهت بإبداع المسلمين للمنهج العلمي التجريبي .

فالحضارة الإسلامية تنبع أساسا من مفاهيم الإسلام ولا تنفصل عنه ، ولذلك فإنه لم يحدث أى صراع بين المفاهيم الإسلامية وبين كشوف العلم وتطورات الحضارة ، وكل الكشوف العلمية وفي مقدمتها المنهج التجريبي إنما قامت في حضنة الإسلام نفسه وبتوجيهه ، هذا المنهج التجريبي الذي تسلمته أوروبا من المسلمين وأقامت عاياه الحضارة المدنية .

ولم يحدث في تاريخ الإسلام اضطهاد للعلماء أو الفلاسفة أو الباحثين ، وكل ما وصف بأنه اضطهاد لم يكن مصدره معارضة لحرية الفكر وإنما كان نتيجة لشيء آخر ، ربما كان من أمور

الحكم والسياسة ولم يضطهد مفكر مسلم واحد نتيجة الخلاف
في الرأي وإنما جاء ذلك بالنسبة لقلّة قليلة في مجال التأمّر السياسي
أو الاتصال بدولة أجنبية (راجع وقائع حياة الحلاج والسهروردي)
أما بالنسبة للغرب فقد كانت تجربته مع الدين مختلفة أشد
الاختلاف ولذلك فإن نظرتّه إليه وموقفه منه ، هذا الموقف
المتّصل في آراء « تيتشة وماركس وفرويد ودوركايم وسارتر » ،
إنما قد استمد مقوماته من الخلاف بين العلم والكنيسة ، أو من
مفهوم المسيحية الغربية المختلف اختلافا جذريا عن مفهوم المسيحية
الساوية المنزلة وذلك حين ارتبط الفكر الوثني الإغريقي ،
والقانون الروماني بالمسيحية ، وأقام ذلك النتاج الفكري الذي
رسم منهج الحياة العقلية والروحية والاجتماعية في أوروبا منذ
عصر النهضة إلى اليوم .

ومن هنا كانت نظرة الفكر الأوربي إلى المسيحية (الغربية)
في أوائل النهضة حيث وقفت الكنيسة مع الإقطاع والأمراء ،
أمام أضواء العلم الذي استمدته أوروبا من مصادره الإسلامية
عن طريق الأندلس ، نتيجة لآراء وأفكار ابن سينا والغزالي
وابن رشد ، التي اقتبستها مدارس أوروبا المسيحية منذ القرن الثاني
عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر ، هذه الأفكار التي أخذت

تطورات عميقة في الفلسفة واللاهوت والأخلاق في الفكر الغربي والمسيحي ، بالإضافة إلى المنهج التجريبي الإسلامي ، مما كان مصدرا أساسيا لقيام الحضارة الحديثة .

وقد بدأ تاريخ الفكر الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي مشحونا بالمصادمات ومظاهر الطغيان التي تكررت في قتل الرجال والنساء وإحراق الجثث البشرية والمدن وتخريبها وإبادة السلب والنهب وقيام محاكم التفتيش ، والخلاف بين (الكاثوليك والبروتستانت) مما انتهى إلى مذبحة (سانت بارتلي) . من شأن هذا كله وقصته طويلة وفصوله دامية ، أن أعطى للدين مفهوما مظلما موحشا ظل يعيش في أعماق الفكر الأوربي ويصبغ الفكر الغربي كله ، ويسيطر بالتحدي على مفكره . ومن هنا فإن مفهوم الدين في الفكر الغربي (بشقيه) بدأ من ذلك الوقت مختلفا أشد الاختلاف عن مفهوم الدين في الفكر الإسلامي .

ومن هنا كان اتجاه الفكر الغربي كنقطة تحول إلى الإيمان بالإنسان سيذا للكون وبتقديس العقل ، كبديل عن الإيمان بالله ، ثم كانت نزعات الإلحاد والعلمانية ودين الطبيعة وعشرات من المذاهب العقائدية والايولوجيات السياسية والاجتماعية ومحاولة إقامة نظام أخلاقي منفصل عن الدين .



ولقد ألفت هذه المعارك والفلسفات والنظرات ظاهراً على
الفكر الإسلامى منذ بدأ زحف الاستعمار الغربى على العالم
الإسلامى ، حاملاً معه هذه المفاهيم كجزء من مخططه فى الغزو
الثقافى والتغريب للقضاء على قوة الدين وأثر الإسلام فى النفس
العربية الإسلامية وكسلاح لتركيز السيطرة الغربية وتمكين
النفوذ الاستعمارى .

ومن خلال معركة الدين نشأت فى أوروبا شبهة القول بأن
الدين يتعارض مع النظر العقلى ، وهى شبهة لها مجالها الحقيقى
فى واقع الفكر الغربى ، بينما لا نجد لها أى أثر فى حياة الفكر
الإسلامى ، ومن هنا أيضاً ذاعت الدعوات التى حملها كثير من
درسوا هذا الصراع بين الغرب والدين ، وهى اتهام الدين بأنه
تأخر وانحطاط وأن الوسيلة الوحيدة للارتقاء والتقدم ، هو
الانسلاخ من الدين وابعاده عن مجال الحياة وإلغاء سيطرته على
أى مفهوم من مفاهيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .
وقد ظلت هذه الشبهة تسرى كالنار فى الهشيم فى دعوات
بعض الموالين للثقافات الغربية فى العالم الإسلامى وتتصل بكثير
من مناهج الدراسة فى الجامعات والصحافة ومجالات البحث
المختلفة .

قاعدة الإسلام الأساسية هي « التوحيد » : القائمة على الاعتقاد بوجود الله الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان وهو في هذا يبدو مختلفا مع عقائد كثيرة ومن هنا كان عجز المعارضين له ، عجزا في الفهم أساسا .

وقد جرت محاولات ضخمة لنقد مفهوم التوحيد في الإسلام ، وذاعت دعوات كثيرة حماتها رياح التغريب في محاولة من دعايتها لإحلالها مكان الإسلام في نفوس المسلمين غير أن هذه الدعوات قد فشلت وهذه السنن المسمومة المصوبة قد ردت إلى أصحابها .

وفي هذا يقول العلامة محمد فريد وجدى :

« إذا كانت أمة لا تنجح فيها دعوة دينية فهي الأمة الإسلامية لأن دينها أجمع الأديان لمعتقدات البشر ، منقحة مهذبة ، تتفق مع العقل والعلم معا ، فهم يؤمنون بجميع رسل الله ، وأمروا ألا يفرقوا بين أحد منهم ، ويؤمنون بالكتب كلها ويحترمونها ، ومع احترامهم لجميع الكتب فإنه يتعذر على أكبر قوة في الأرض أن تحوّلهم عن دينهم » .

* * *

وقد دارت حول الإسلام مباحث كثيرة وكانت هذه

النظريات في هجومها على الأديان تحاول أن تقرر الإسلام بها دون تفرقة أو نظر إلى موقف الإسلام الصحيح من قضايا العصر والحرية والعلم وغيرها! وعائنا أن نفصل بين هذه الآراء في الدين وبين الإسلام ، ذلك لأن هذه النظريات لا تقصد الإسلام حيث لم يكن دين أوروبا ومفتاح البحث كله ، ونقطة الالتقاء والاختلاف بين الإسلام وبين العقائد المختلفة : إن الإسلام دين ونظام وحياة ، وأنه ليس ديناً تعبدياً لاهوتياً خالصاً ، ومن هنا يمكن المقارنة والفصل بينه وبين غيره من عقائد .

ولقد كون الإسلام لهذه الأمة فكراً ، قوامه التوحيد الذي هو قوام الإسلام نفسه ، ومن خلال هذا الفكر تكون مزاج المسلمين النفسى والاجتماعى ، وتكونت قيمهم ومفاهيمهم ، على اختلاف قومياتهم وأوطانهم ، وارتباطاتهم بالأرض أو بالعرق .

ومن الحق أن يقال إن هناك وحدة فكر تجمع المسلمين على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ، ومن الحق أن يقال أيضاً إن النفوذ الاستعماري منذ سيطر على العالم الإسلامى كان يهدف إلى القضاء على هذه الوحدة الفكرية طريقاً للقضاء على الوحدة العامة التي تجمع المسلمين جميعاً .

وتهدف محاولة القضاء على وحدة الفكر : السمل على خلق قيم جديدة وافدة من الفكر الغربى الذى يختلف فى أسسه وقيمه عن الفكر الإسلامى ، أو وضع مفاهيم جديدة غريبة للقيم الأساسية الإسلامية .

ولكن الفكر الإسلامى كان دائماً ، انتمالاً من أصالته ، قادراً على مجابهة هذه الحملات والمحاولات ، وكان قادراً على النظر فى الفكر الوافد ، وتقبل ما يتفق مع مناهجه وقيمه ، وامتصاص ما لا يخرج عن ذاتيته وأصوله وجذوره .

وكذلك لم يستسلم الفكر الإسلامى فى الماضى للنظريات الدخيلة أو الفلسفات الوافدة ، ولم يتقبلها تقبلاً من شأنه أن يؤثر فى أسسه وموماته ، وأمامنا أخطر تجربة مر بها الفكر الإسلامى حين اتصل بفلسفات اليونان والفرس والهنود ، فقد درسها وانتفع بالجوانب الصالحة والإيجابية منها ، وأضافها إلى كيانه ، ولكنه لم يتقبلها تقبلاً كاملاً ، وإنما صاغها داخل بوتقته ، وفى مجريات منهجه القائم على التوحيد ، والمستمد من القرآن .
ولقد رفض فكرنا الإسلامى أساساً منطق (أرسطو) ، وأعلن على لسان قاداته ومصلحيه : أن للإسلام منطقاً مستمداً من القرآن .

م



وفي العصر الحديث لم يستسلم الفكر الإسلامي للنظريات الغربية : لا مفاهيمها ولا قيمها ، وقاومها طويلا ، وأعلن وجهة نظره الخالصة ، واضحة في مختلف القضايا ، وظل جيلا بعد جيل يواجه هذه النظريات ويكشف عن نظريته الأصيلة في كل قضية ، ويدلي برأيه في كل معضلة ، لا يتوقف عن النظر المنصف ، ولا يتقبل كل شيء كما هو .

بل لم يتوقف الفكر الإسلامي عن معارضة كل قيمة تختلف عن مفهوم التوحيد أو منهج القرآن ، هذا مع إبقائه على طابعه ومحافظته على سمته ، وتأكيده سماحته المعهودة ، في الانفتاح على مختلف الثقافات ، وأخذه منها وعطائه ، دون أن يخرج ذلك عن مقوماته .

وقد اعترف كثير من الباحثين ، بل وبعض المستشرقين ، اضطروا إلى الاعتراف بالحقيقة ، التي تتمثل واضحة في أن للفكر الإسلامي ذاتية أصيلة وطابعا خالصا وشخصية مميزة ، غير متقبلة للانصهار أو الذوبان في أي ثقافة أو فكر آخر .

إن أمانة المفكرين في عصرنا وجيلنا تحتم عليهم أن يعملوا دائما على تحرير الفكر الإسلامي من التبعية أو الانصهار في الفكر الغربي ، وهي نفس الأمانة التي حملها الرواد الأمناء من قبلهم .

حاولت الفلسفات المعاصرة أن تهاجم الأديان وأن تصنفها في دائرة « الغيبيات » وقد استطاع العلماء التغلب على مفهوم الغيب ، وإن لم يقولوا فيه الكلمة الأخيرة ، فقد اعترفوا به إن أصحاب المذاهب الفلسفية والنظريات العقلية قد عجزوا عن ذلك ، ولكن القوى التي تسوق المذاهب والنظريات لتكون وسيلة إلى تدمير المجتمعات القوية المتماسكة ما تزال تثير الغبار حول الإيمان بالغيب والبعث والجزاء وهو الأساس الثاني للدين عامة وللإسلام خاصة بعد قاعدة « التوحيد » .

وإذا كان منهج المعرفة يعتمد على العقل وعلى البصيرة فإن هذا الجانب مما تؤمن به عن طريق الوحي أو القاب أو البصيرة .
يقول الدكتور (محمد محمد حسين) (١) : إن الله سبحانه حين علم ضعف العقل وعجزه - وهو العليم الحكيم - أرشد خلقه الضعفاء فيما هو خارج عن حدود تفكيرهم إلى ما فيه خيرهم وأمرهم بلزومه والانقياد له - سبحانه - فيه ، سواء أدركوا وجه المصلحة والخير فيه أو لم يدركوه ، لأن إدراك الخير والشر ، والنفع والضرر ، والجمال والقبح ، يحتاج إلى أن يحيط المدرك بالوجود كله زماناً

(١) راجع بحثه : اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر .

ومكانا وعلما . والإنسان لا يعرف من الوجود المتراعى الذى لا يحيط تصوره بأوله أو بآخره ، إلا حاضره الذى لا يعد شيئا مذكوراً إذا قورن بالوجود كله ، بل إنه لا يدرك من هذا الوجود الراهن على تفاهته إلا أقله .

وهو مع ذلك كله - أو لذلك كله - يجهل العلة ويجهل الغاية ومن كان هذا مبالغ عجزه ومنتهى إدراكه ، كيف يسوغ له أن يعارض ما أنزل الله وأن يتجاوز حدوده بدعوى أنه لا يدرك حقيقة أو لا يدرك وجه المصلحة فيه .

من أجل ذلك كان الطعن فى الإيمان بالغيب هدماً للعقيدة الدينية فى لها ، وفى صميمها ، وفى أساسها الأول الذى لا قيام لها بغيره ، وما أكثر ما يذاع فى هذا الباب مما يدعو الناس إلى الشك فى كل ما يخرج عن دائرة المحسوس يصدر باسم العلم والعلمانية وباسم حرية الفكر والتحرر من عبودية التقليد .

والعلمانية Secularism والتحررية Liberalism كلاهما مذهبان أوربيان مناهضان للدين برزا فى القرن الميلادى الماضى وسرت عدواهما فيما سرى إلى العرب والمسلمين والشرق على وجه العموم حين نظروا بعين الوهم فى أعماق ضعفهم إلى الغرب فى ذروة تفوقه فظنوا أن كل ما يصدر عنه حق وجميل .

ويلتقي المذهبان عند الدعوة إلى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس ونبذ كل مالا تؤيده التجربة والتحرر من العقائد الخيئية التي هي عندهم ضرب من الأوهام، ومن العواطف بكل ضروبها .

فالآديان كلها عندهم أساطير ، كان الناس يخضعون لما تخوفهم به من العذاب ثم تحرروا من هذا الخوف الموهوم الذي زعمته الأديان .

وقد غاب عن هؤلاء أن الدراسات التجريبية محدودة الميدان والمدى ، لا تتناول إلا المدرك والمحسوس ، والمدرك والمحسوس أقل بكثير مما لا يخضع لحسنا وإدراكنا .

وقد عرف أصحاب هذه الدراسات ، حين اكتشفوا أن الموجات التي تدخل في مدى إدراكنا الحسى ليست إلا شيئا ضئيلا تافها بالقياس إلى المعروف منها فضلا عن المجهول . وأصبح عجز الحواس البشرية شيئا مقررًا تؤيده الدراسات التجريبية نفسها .

ولا يزال علماء الفلك يقفون مشدوهين أمام ذلك الفضاء الغامض لا يعرفون مقاييسه وأبعاده إلا ظنا . بل إن بعض ما يستنتجونه أدعى للحيرة من الجمل به . فهم يقدرّون أن بعض

النجوم - اركتورس مثلا - تبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية ومعنى هذا أن ذلك النجم الذى نراه الآن لا نراه كما هو الآن . ولكننا نراه كما كان منذ ثلاثين سنة لأن الشعاع الضوئى الذى يصل إلى أبصارنا الآن هو الذى انبعث منه منذ ثلاثين سنة ، ويقدر الفلكيون أن بعض المجرات يبعد عنا ملايين من السنين الضوئية ومئات السنين .

٦ إن المنهج التجريبي يستطيع أن يوصلنا إلى تسخير بعض الظواهر والطاقات وتطويعها لمصلحتنا ، ولكنه لا يوصلنا إلى حقائق هذه الظواهر والطاقات .

إن إنكار الغيب ليس ثمرة المعرفة ولا ثمرة العلم ولكنه من آفات القليل من المعرفة والقشور من العلم .

* * *

إن آية الآيات فى الدين كما يقرره الإسلام :
الإيمان بالغيب، واليقين بالبعث والجزاء وبالتبعة والمسئولية الفردية وهذه حقيقة جوهرية لا يسقطها الإسلام أبدا ، بل يضعها دوما نصب الأعين والعقول والأفهام ، ومن خلالها تجرى كل أعمال الدنيا ، والإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ودافع بناء وحركة ، وليس عامل جمود أو تخلف ، وإذا لم يكن للأعمال الكبرى فى الحياة الإنسانية وجهة ربانية تعطى

✓ ١٠٠

ثمرتها في الدنيا وتعطى جزءاها في الآخرة ، فإن رسالة الإنسان في الحياة تكون عبثا ويكون وجوده اعتباطا ، ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية ، أو يكون الإنسان بغير رسالة ، وتلك هي الحقيقة التي يكشف عنها (الدين) للعقل البشري ، والتي قد تغيب عنه ولا يهتدى إليها إذا لم يجعل الدين مقوما من مقومات فكره وحياته ، ليست الحياة عبثا وليست النفس الإنسانية فيها ضياعا ولكنها رسالة ومسئولية وهي حقيقة وتبعة ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء .

- 7 وإن دعاة المذاهب الفلسفية يحاولون من أجل أهداف الغزو الثقافي والاستعمار العالمي أن يحجبوا هذا المعنى ، ويفسدوا الفطرة الإنسانية بالحديث عن نهاية الحياة باموت ، وذلك حتى يفسحوا المجال أمام الناس للركض من أجل الملذات التي ينتهبونها قبل أن تأكلهم الحروب والقنابل الذرية ومن هنا فتح ذلك الباب الخطير باب القلق والضياع والرفض وغيرها من منطلقات لا يعرفها المسلم والمؤمن بالدين. وهي تلك النار التي تأكل القلوب والنفوس حين تنزاح عن أصحابها فطرة الإيمان بالله وعقيدة الدين.
- ٦ وحين يتأكد للنفس الإنسانية أمر البعث والجزاء ، تتجه الأعمال في الحياة وجهة الخير والحق والعدل ، وتنزاح تلك الأزيمة التي تحاول أن تفرق النفوس في تيه مضلل ، ومن حسن الحظ

أن الأمة الإسلامية تعرف أصالة التدين وفي أرضهم نزلت
الآديان ، ومن هنا فهي حرية ألا تقع في هذه الأزمة الصاعقة
التي تجيش لها الصهيونية العالمية قواها حيث تدفع تلك الدعوات
الهدامة إلى مجال الفكر الإسلامي .

ولا شك أن الفطرة الإنسانية في أعماقها تستطيع أن تلمس
طريقها إلى الدين الحق وتتصل بخالقها الأوحد ، ولا شك أن
الإلحاد أمر طارئ على النفس الإنسانية وليس من طبيعتها في
أعماق النفس حاجة إلى التدين والاتصال به .

ولا شك أن التدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني ،
والفطرة البشرية وهو أصدق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع ،
وبناء الإنسانية المتحررة من الخوف والشك والانحلال .
وقد تثير الشبهات ما تثير حول البعث والمعجزات .

ولا شك أن تصور البعث ليس مستحيلا ، بل القول باستحالته
هو الذي يوجب تناقضا عقاليا ، لأن البعث هو خلق جديد والذي
خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادة خلقه بل هو أهون عايه
« وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده »

أما المعجزات والقول بأنها خرق للنواميس الكونية فالأمر
فيها جد يسير ، فالله هو خالق الكون وخالق النواميس والذي
خلق النواميس قادر على خرقها بل هو قادر على إزالتها جملة .

إن إقرار الحقيقة التي تقوم على وجود الله الخالق لهذا الكون لا يشكل تناقضا عقائريا ، بل إنكار هذه الحقيقة هو الذي يشكل التناقض ، فهذا العالم الممكن الحادث المعلوم ، هل يمكن أن يكون موجودا بغير علة ولا فاعل !

* * *

7 وما يوجه إلى الإسلام من شبهات حول القضاء والقدر إنما هو محاولة لانتقاص الإسلام في أمر من أروع مزاياه وأعظمها قدرا ، فإن الإيمان بالقضاء إنما هو قوة دافعة ببناء .

ولقد كان الإيمان بالقضاء والقدر أعظم حافز للمسلمين في صدر الإسلام على أن يجتازوا مشارق الأرض ومغاربها إلى العالم أجمع مسترخصين أنفسهم في سبيل الله ، وما ساء فهم الناس فكرة القضاء والقدر ، فأصبحت فكرة جامدة إلا حين فسد فهم القيم الإسلامية ، وأضحت معانيه تفسر تفسيراً جامدا مشوها .

ويقول الدكتور أحمد الحوفي في هذا المجال :

إن علم الغيب قاصر على الخالق سبحانه «وعنده مفاتيح الغيب» والعقل عاجز عن معرفة حقيقة الذات الإلهية وعاجز عن معرفة صفات الله ، وعاجز عن معرفة أحوال الجسم الإنساني والنفس الإنسانية .



وعلم الإنسان : هو ماض وحاضر وظن في المستقبل .
أما علم الله فهو أزلى أبدي ، يعلم الأمور المستقبلية عليه للحاضر ،
وعلم الله يحيط بما كان وبما سيكون ، لأنه هو الخالق ، فهو عالم
علما سابقا للأحداث والوقائع فلا يقع في ملكه حدث إلا موافق
لإرادته ، ومن أجل ذلك يؤمن المسلمون بقضاء الله وقدره إيمانا
لا يتزعزع ، إيمانا بعلم الله وقدرته وإرادته .

٦ هذا الإيمان يعصمنا من الغرور إذا حالفنا نجاح ،
٥ ويبعد عنا الخور والضعف واليأس والسخط إذا نزلت الكارثة .
لأن المؤمن بالقضاء يصبر على ما نزل به ، ويستمد من صبره
قوة على مغالبة عوامل القنوط والاستسلام .

والمؤمن بالقضاء شجاع لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق
في علم الله من موت أو حياة .

والمؤمن بالقضاء أبيض النفس لا يذل لأحد ، والإيمان
بالقضاء يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والسخط .

نحن نؤمن بالقضاء لأن الأحداث قبل أن تقع سر محجب عنا
لا يعلمه إلا الله ، وليس في استطاعة مخلوق أن يعلم المقدور .

١٠٤

قال تعالى على لسان نبيه : «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت
من الخير» .

ويقول الحق تبارك وتعالى : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب
الله لنا ، اهـ .

* * *

ولقد كان المسلم يردد دائماً هذه الحقيقة :
أن الذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ،
والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، لن يرهب الموت ، ولن
يخاف أحداً ، وهو يدافع عن حقه ، ويعلى كلبة أمته ، وبهذه
العقيدة واجه المسلمون أعداءهم ، فنالوا منهم ، وحققوا فى تاريخ
الإسلام أشرف صفحة من المقاومة وتأكيد الذات .
وهم لن يستطيعوا مواجهة خصومهم دوماً ، وعلى مدى التاريخ
إلا بمثل هذه العقيدة .

هناك شبهات يرددها خصوم الإسلام ، ودعاة العلمانية ،
والفلسفة المادية ، هي محاولة إقران الأنبياء والرسل الذين أنزل الله
عليهم كتبه ورسالاته بالعباقرة والمصالحين ، فمن الخطأ المحض
وضع الأنبياء في صف المصلحين ودعاة الحرية والوطنية ، ومن
هذا خطأ الزعم بأن الأنبياء « رجال أفذاذ قد ثاروا على
معتقدات عصرهم وحرروا أفكارهم ، ووصلوا للحقيقة بإدمان
الفكر » .

« ومن شأن هذا أن يخدع السذج » من المؤمنين الذين قد
يصدق على أفهامهم ما يخفى هذا المذهب تحت مظهره البراق من خطر ،
فلا يفتنون إلى أنه يحرم من حيث لا يدرون إلى إنكار الوحي
وإلى اعتبار الأنبياء فلاسفة ومفكرين تخضع الديانات التي جاءوا
بها للنقد والتعديل ، وللتنقيح والتهذيب .

ثم إن هذا المذهب يدعو الناس - كل الناس - أن يسلكوا
هذا الطريق الذي زعم أن النقطة التي بدأ منها الأنبياء وهي الشك

(١) عن بحث للدكتور محمد محمد حسين ، وآخر للدكتور محمد
أحمد الغمراوي .

في كل العقائد والآراء وتخطى حرمة كل مقدس مصون ، ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون ، والذين يذهبون هذا المذهب يركبون الشطط في تأويل المعجزات وكل ما يتصل بعالم الغيب ، فيقولون مثلاً: إن المقصود بالشيطان هو العقل الباطن ، وإن الجنة والنار حالات عقابية نفسية ، وأن الإسراء والمعراج انتقال عقلي وروحي كالذي يحدث في الأحلام ، وأن قصص القرآن وما جاء فيه من مثل خلق الدنيا وخلق آدم وخروجه من الجنة ليس إلا تمثيلاً ، وأن المقصود بإمداد الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى : « وأنزل جنوداً لم تروها » هو قوة الروح المعنوية ، ومن الواضح أن الذي ينكر المعجزة لغرايتها وشدوذها عن المؤلف خايق أن ينكر الوحي نفسه ، لأنه أمعن في الغرابة وفي الشذوذ عن المؤلف .

والذي يعتقد حقاً أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ينزل عليه جبريل مرسلًا من عند الله سبحانه وتعالى ، كيف يكبر عليه أن يسلم بما يجرى الله على يديه من غرائب وما يحفه به من أسباب الرعاية التي تخالف مألوف العادة .

وتشير الباحثة (نازك الملايكة) إلى شبهة أخرى من الشبهات التي تتردد في حياتنا العقلية الحديثة ، نتيجة إقبالها على قراءة آداب الغرب ونقلها إلى لغتنا ، تقول: لقد أخذنا عنهم فيما أخذنا موقفهم من الدين ، والتقطنا نظرتهم المادية إلى الحياة . وموقفهم من الدين ، يختلف اختلافا جسيما عن موقفنا نحن ، فإن الدين الإسلامي يرتبط كل الارتباط بالفكر ، وقد قامت حول القرآن أركان اللغة والأدب والفقه بحيث تعد هذه العلوم كلها تفرعات لعلم القرآن تركز إليه وتدور حوله ، لا بل إن طلب العلم ونشره قد بقى هو نفسه واجبا دينيا مفروضا ، يؤديه الطالب والعالم قربي إلى الله .

ومن ذلك أن النحوى العلامة ابن مالك كان يخرج ويقف على باب مدرسته ويقول: هل من راغب في علم الحديث أو التفسير؟ قد أخلصتها من ذمتي .. فإن لم يجد راغبا أو طالبا قال : خرجت من آفة السكتان

وتفسير ذلك أن العربي كان يعتقد أن لله حقا فيما استودع العلماء من فهم وعلم وأنه أخذ عليهم البيان . فلا يصح لهم السكوت عن نشر العلم وإظهار الحق وتعزية الباطل .

أما في أوروبا فإن الدين يتصف بشيء من الانعزال عن الحياة فلا يرتبط بالأدب والفكر إلا من بعيد .

فالغربي يعد الدين لله وأدبا للحياة ، وكأن الحياة نفسها ليست لله كما يعتقد العربي ، وقد بعد الدين عن الحياة في الغرب وهو أمر لم يعرفه المجتمع المسلم .

والمسيحية التي نزلت في بلاد الغرب قد فشلت في تحويل الغربي تحويلا كاملا عن وثنية آبائه ، فبقى ثنائى المعتقد يصلى لله ويؤمن رغما عنه بآلهة الإغريق ، حتى إنه يقسم في حيانه اليومية (بجو بتر) كبير آلهة الإغريق، وهو يذهب إلى الكنيسة ولكنه لا يابث أن يرجع إلى منزله ليقرأ الفلسفات اليونانية ويكتب أدبا طالعه وثنى تتردد فيه أسماء الآلهة الشريرة التي كان يعبدها اليونان والرومان.

ولنما يصف هذه الآلهة بأنها شريرة لأنها كما قرر (سقراط) نفسه ، لا تتورع عن ارتكاب الشر والجريمة والصغائر ، فهي كالإنسان وإنما تتفوق في القدرة على الإيذاء والظلم ، وبسبب هذه الوثنية الغربية بقي المسيحيون العرب أوثق صلة بالمسيحية الحققة من مسيحي الغرب .



ولقد دعا الغزاة وأعوانهم عبر السنين الماضية إلى أن نحتضن الثقافة الغربية بكل ما فيها دون ما تدبر أو مناقشة ، فكان مما أخذناه عنهم هذا الفصل العجيب بين الدين والحياة ، وقد كان لذلك تأثير سيء في حياتنا وفكرنا ، لأن الإسلام يكاد يكون هو الحياة العربية نفسها فلا نستطيع انتزاع أحدهما إلا بانزع الآخر .

فقد كان الإسلام ديناً إلهياً وثورة سياسية وفكرية واجتماعية معا ولذلك اهتزت له الأرض اهتزازاً خصباً ، وأحدث انقلاباً عميقاً في مناحي الحياة معا .

ولم يترك الإسلام في حياة العربي شاردة ولا واردة إلا ضبطها وأحصاها ، فقد كان القرآن كتاباً شاملاً فيه اللغة والأدب والشريعة والأخلاق جميعاً ، فبنى عليه تراثه كله .

فإذا فصلنا الدين عن الحياة لم يكن معنى هذا إلا أن تفصل العروبة عن تراثنا وحضارتنا ، ونحب أن نضيف إلى هذا : أن القرآن - باعتباره كتاب الدين الإسلامي والثقافة معا - سيق أبدأ كتاب كل عربي مهما كان دينه ، ولقد اتخذ الأدب الجديد الذي ينشره اليافعون العرب موقف الغربيين من الدين ، فظهرت

فيه الوثنية مصحوبة بالإلحاد في أدنى مستوياته ، بدافع التقليد والنقل .

فلا شك أن هذا الإلحاد أوطأ مرتبة من إلحاد مصدره شك يعترى النفس فيضللمها ويحيرها ، وقد واكب هذا ابتعاد الجيل اليافع عن القرآن وما فيه من أجواء روحية وكنوز أخلاقية وثروة لغوية وأدبية ، وكل ذلك لا يبشر بالخير فإذا مضينا فيه قطعنا جذورنا الحضارية وأضعنا الروح العربى جملة .

✓

✓

وأشار كثير من الباحثين إلى الأبحاث التي تتصيد مواطن الشبه والغموض في الشريعة الإسلامية، وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح، ليفتن بها الأغرار الذين يدق عليهم وجه الخير والمصلحة فيما يساق من مزاعم، لأنهم لم يتحصنوا بالقدر اللازم من الثقافة الإسلامية الذي يمكنهم من اكتشاف مواطن الخطأ والتضليل فيما يسوقونه من أباطيل. وأسلوب الهدامين في ذلك مشهور ومعروف.

فهم يفترضون الفرض بما تمليه عليهم أهواؤهم وأغراضهم، ثم يلتمسون الأدلة على إقامته من النصوص الإسلامية، فيأخذون منها ما يؤيدون به مزاعمهم، بعد أن يبتروه عما قبله ومما بعده، ويحرفوه عن موضعه، وينقلوه عن دلالة. ثم يهملون ما لا يتفق مع مزاعمهم ويتجاهلونه.

✚ ٦ وينظر القارئ الساذج من المسلمين فيما كتبوا فيجد كثرة من النصوص المسندة إلى مراجع وثيقة، ولا يتنبه إلى ما فيها من تحريف ولا يتسع وقته لمراجعة ما أحاطها من سياق، وما حفرها من أسباب، فتقع في نفسه موقع القبول والإقناع. لأنه لا يعرف - لقلة بضاعته من هذه الثقافات - أن هناك من النصوص الأخرى

التي تنقض هذه المزاعم أضعاف ماساقه السكاتب ولأنه لا يميز - لفضالة
إمامه بالعلوم الإسلامية ، وطرق روايتها - بين قويتها وضعيفها ،

* * *

وأشار الدكتور محمد محمد حسين إلى خطر استخدام نصوص
الشريعة الإسلامية في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية
وهو خطر أشد من تقايد هذه الأنماط تقليدا أعمى لأن الناس يمكن
أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت فيهم حركة
أصيلة للأحياء . أما في الحالة الأولى - وهي حالة اندماج وتفاعل -
فإن إدراك الحدود بين الأصيل والدخيل اتدق وتخفى حتى لتكاد
للتستحيل ، لأن الناتج من التفاعل سيكون شيئا معقد التركيب ،
تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له ولأن
الناس يدركون في حالة التقليد أن الذي يفعلونه شيء آخر
غير الإسلام .

أما في الحالة الأولى فسوف يرسخ في أذهانهم أن ذلك هو -
التفسير الحق للإسلام الذي يلائم ظروف الزمان .

* * *

ويشير الدكتور محمد محمد حسين إلى خطر آخر من هذه
الشبهات المثارة في مواجهة حقائق الإسلام :



ذلك أن البعض لا يعرض للدين بتصديق أو تكذيب ،
ولكنه يقارن بينه وبين ماوارثته الشعوب المتخلفة من أساطير ،
تاركا للقارىء أن يستنتج من ذلك أن الأديان ليست إلا مجموعة
من الأساطير .

والتعليل الصحيح لما نجده من اتفاق في بعض الأحيان بين
الأديان السماوية وبين بعض الأساطير مرده إلى أن
هذه الأساطير الوثنية هي في حقيقة أمرها صورة محرفة من أديان
سماوية سابقة فالله سبحانه وتعالى يقول : « وإن من أمة إلا
خلا فيها نذير » .

ومعنى ذلك أن هناك أديانا سماوية ذهب بها أصحابها هذه
المذاهب في التحريف فجعلوا الرسل الذين بلغوها أربابا من
دون الله () .

(١) من بحث للدكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة
في الفكر الغربي .

القضية الرابعة

الإسلام والحضارة المعاصرة

(١)

من الشبهات التي تثار حول الإسلام والفكر الإسلامى محاولة إلقاء ظل بالتبعية للفكر اليونانى الإغريق أو الوثنى المجوسى القديم وهى محاولة لا يكف دعاة التبشير والاستشراق عن ترديدها .

وهى دعوة ظالمة وشبهة لا يقوم دليل واحد على صدقها .
ذلك أن لكل نظام اجتماعى فلسفته المعبرة عنه الخادمة لمصالحه ، والفلسفة اليونانية كانت تعبيراً عن طبيعة المجتمع اليونانى وهو مجتمع عبودى قائم على السادة والعبيد ، وكانت الفلسفة اليونانية فلسفة تأملية خالصة تقوم على التجربة .

ولكن المجتمع الإسلامى كان يختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمع اليونانى العبودى ، كان دولة مائتة بالإمكان والتفتح والامتداد ، وكانت فى جوهرها حضارة عملية داخل إطار الإسلام .
يصور هذا المعنى الأستاذ محمود أمين حين يقول :



« عندما ترجمت الفلسفة اليونانية كان من الطبيعي للفكر الإسلامي في البداية أن يعكف على مناقشتها ، ومدارستها ، وكان من الطبيعي أن يختلف موقف الفكر الإسلامي منها اختلافاً يبنياً ، وهذا هو ما تحقق بالفعل .

في البداية كانت محاولة للتوفيق ، ثم قامت معارضة تشمل كافة جوانب الفكر الإسلامي ، وكانت معارضة نابغة من جوهر المجتمع الإسلامي نفسه وحقيقة مصالحه ، وكانت امتداداً للفكر الإسلامي نفسه منذ ينابيعه الأولى في الفقه ، والأصول ، والنحو والبلاغة ، حتى شمل الفلسفة والفكر بصورة عامة .

2 وكان من الطبيعي أن يتحقق هذا ، فالفكر الإسلامي منذ بدايته لم يكن يفرق بين النظرة العقلية التأملية ، وبين الممارسة العملية ، بل كان الجانب الأكبر من الفلاسفة أطباء ، ورجال أعمال يتمرسون بمسؤوليات فعالية في جهاز الدولة ، ويقومون بأنفسهم بأشكال متنوعة من التجريب العملي .

7 من خلال هذا التمرس العملي أخذ المفكر المسلم يكتشف قصور المذهب الأرسطائي الشكلي ، وأخذ ينتقد في (أرسطو) عدم اهتمامه بالتجربة .

[وكان من الطبيعي أن يكون الفلاسفة المسلمون رجال عمل X وتجربة فلم يكن مجتمعهم مجتمعاً عبودياً كالمجتمع اليوناني .

على أن التوحيد بين التأمل والممارسة العملية دفعت بالمفكر المسلم إلى نتيجة أخرى بالنسبة لفلسفة أرسطو هي أنها خرجت عن حدود النظرة الكيفية الغائية إلى التحديد الكمي .

وفي هذا الاتجاه إلى الكم والتجربة خروج مباشر كذلك على مفهوم أساسي في منطق أرسطو وهو التعريف .

وخرج المفكرون المسلمون على هذا المفهوم الأرسطائي للحد والتعريف ، وخاصة رجال الأصول والفقه ، وانتهوا إلى نظرة جديدة للتعريف تقربه إلى حركة الواقع .

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا بشكل عام إلى الخروج عن حدود القياس الأرسطائي إلى الحصول على نتيجة عملية ، وأصبحت عمالية التجريب العملي ، لا عملية الاستخلاص المنطقي سبيلاً من سبل المعرفة .

المهم أن نذكر أنه بهذا « المنهج التجريبي » وبهذه القيم العالية والكمية وبهذا التوحيد بين النظر والعمل ، وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان ، بهذا كله اختلف الفكر الإسلامي اختلافاً

كبيراً عن الفكر اليوناني ، وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ، ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً أو عفوياً ، وإنما كان نتيجة لاختلاف التكوين الاجتماعي للدولة الإسلامية ، وللحضارة اليونانية التي عبرت عن نهايتها فلسفة أرسطو .

وعلى هذا يمكن القول بأن جوهر الحضارة الإسلامية جوهر عقلي عملي تجريبي حسي .

وملخص ذلك كله أن الفكر الإسلامي كان في جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق أرسطو وأطل على التجربة العملية واتخذها مصدراً لعلمه وفلسفته .

٦ على أن الشيء الجدير بالذكر هو أن الفكر الإسلامي العلمي هو جوهر الفلسفة الإسلامية وأن الفلسفة الإسلامية بهذا ليست امتداداً للفكر اليوناني بل كانت إضافة جديدة ذات طابع تجريبي كمي ، وكانت نقطة انطلاق - (عبر روجر بيكون ، وديكارت ، وفرانسيس بيكون ، وجاليلو) إلى نشأة العلم التجريبي الحديث .

* * *

٧ وأشار الدكتور (علي سامي النشار) إلى جانب آخر من أوجه الخلاف فقال :

« لقد حدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديدا تاما وطلب
عدم الخوض فيما خلفها ، طلب منا أن نبحث في الكون وآفاقه
ولكن لا نحاول أن نبحث في (الجوهر) وذلك لقصور العقل
الإنساني عن التوصل إلى الشيء في ذاته ، ومعنى هذا أن الإسلام
حال دون الأبحاث الميتافيزيقية على طريقة اليونان فضلا عن أن
الميتافيزيقا اليونانية هي نتاج العقلية اليونانية وهي تعبير خاص
عن ذات مقسرة في عالم متشائم ، والإسلام ينكر هيمن ذات
مفسرة في التفكير الوجودي ، ولا يوافق على تصوير الكون
[تصويراً خاصاً ذاتياً مخالفاً لما وضع من صورة عميقة ، ولقد
ألهم القرآن المسلمين ميتافيزيقاهم] .

في حدود هذه النظرة نستطيع أن نفهم الفوارق البعيدة
بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني الإغريقي الهليني الذي
ما زالت أقلام دعاة التغريب والغزو الثقافي تحاول أن تصور
الفكر الإسلامي صورة منه باللغة العربية كما قال: (أرنست رينان)
أو امتداداً له .

* * *

وليس هناك أمر أشد تعارضاً واختلافاً كالأمر بين الإسلام
والوثنية اليونانية فقد قام الإسلام على التوحيد بينما قامت الفلسفة



اليونانية على عبادة الفرد ، وعبادة القوة ، وعبادة الأجسام .
وليست الوثنية التي يحاربها الإسلام - كما يقول الدكتور
محمد البهي - هي وثنية العرب التي كانت قائمة على تعدد الأصنام
وبعض الكواكب فحسب ، بل هي وثنية الإنسان على العموم ،
وهي تقديس الشخص دون رعاية للبدا والمثال . وهي لا تزول
من هذا الوجود مادام للإنسان ناحية مادية وأخرى روحية ،
وما دام للوجود كله أيضا جانبان : جانب ظاهري وهو الجانب
المادي وآخر مستتر وهو الجانب المثالي أو المعنوي ، ولسهولة
انجذاب الإنسان إلى الجانب المادي كان في حاجة على الدوام
إلى الكفاح ضد هذه الوثنية ، وقد هاجم الإسلام الوثنية وهاجم
تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد
حقيقته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من أشخاص .

ح وقد كافح الإسلام ضد عبادة الأشخاص والذوات المشخصة
وما زال بين الإسلام والوثنية صراع من أجل تقديس المبادئ
دون الأشخاص ، وعدم الانقياد لفرد آخر دون رعاية لما يحمله
من مبادئ أو فكر مثالية ، ولقد كان انقياد المسلمين للرسول
لا لأنه محمد بن عبد الله بل لأنه رسول الله : « قل إن كنتم
تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » .

✓ ١٢٠

هذا هو الخلاف الجذري الواضح بين الإسلام والفلسفة اليونانية، وهناك خلافات أخرى كثيرة أهمها : القيم الأخلاقية فقد كان اليونان يجعلون من العري مثلاً أعلى للجمال . بينما لا يقر الإسلام هذا الاتجاه : ولا يرضاه في الأدب أو في المجتمع .

وقد أنكر الإسلام الأساطير وعرف الوضوح ، والصدق وانفتح على الباحات الواضحة المضيئة ، كما ارتفع الإسلام عن استعلان الشهوات واللذات وإن أباح تنظيمها وفق ضوابط وأنظمة تحفظ النفس والجسد ، وتحفظ للمجتمع كرامته وأخلاقته .

(٢)

من الأخطاء الشائعة ذلك الإغضاء المتعمد عن أثر الإسلام
في الحضارة الغربية وفي الفكر الغربي ، فهناك محاولة دائبة
لإنكار هذا الأثر وتجاهله .

غير أن كثيراً من المنصفين كشفوا حقيقة الدور الذي قام به
الإسلام والفكر الإسلامى فى العلم الحديث والفكر البشرى كله .
يقول العلامة (بريفولت) فى كتابه « بناء الإنسانية » :

Making of Humanity

لم يكن (روجر بيكون) إلا رسولا من رسل العلم والمنهج
الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح
بأنه تعلم من معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب وهى الطريق
الوحيد للمعرفة الحقة .

كان المنهج العلمى التجريبي فى عصر (بيكون) قد انتشر انتشاراً
واسعاً ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوروبا ،
ولقد كان (العلم) أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم
الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

وأن العبقريّة التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض
في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك المفازة
وراء سحب الظلام .

ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة بل إن
مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت
بأكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية فإنه على الرغم من أنه ليس
ثمّة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن
إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن
هذه المؤثرات توجد أوضح ما يكون ، وأهم ما تكون في نشأة
تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة ،
وفي المصدر القوي لازدهار العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من
هذا ، أنه يدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم كما رأيناه لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم
النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علومًا أجنبية استجلبوها
من خارج بلادهم وأخذوها من سواهم ولم تتأقلم في يوم
من الأيام فتمتزج امتزاجًا كليًا بالثقافة اليونانية .
وقد نظم اليونان المذاهب وعممو الأحكام ووضعوا النظريات ،
ولكن : أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية

وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي ، كل ذلك ، كان غريبا عن المزاج اليوناني .
أما ما يدعى « العلم » فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضة إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها « العرب » إلى العالم الأوربي .

ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها ، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوربي هو تأثيره في : « العلم الطبيعي » و « الروح العلمي » وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافات لنظريات مبتكرة وكشوف مدهشة بل إن « العلم » يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده ذاته ، وبعد فإن في هذه الشهادة كفاية عن أي قول ، ولكننا ليست هي الشهادة الوحيدة فهناك عشرات :
يقول جورج سارطون في كتابه تاريخ العلم :

« لقد بلغ المسلمون ما يجوز أن نسميه « معجزة العلم العربي »
وقد أوردت كلمة « معجزة » لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه
المسلمون والعرب من الثقافة والعلم ، مما يخرج تقريبا عن نطاق
التصديق .

وليس لذلك شبه في تاريخ العلم كله . ويجب أن ندرك أن ذلك
التطور الذي لا يكاد يصدق في العلم العربي لم يبدأ إلا منذ
القرن الثاني للهجرة .

٦ ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الانتاج
العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما ، وبأن العرب لم يكونوا
سوى مقلدين ، إن هذا الحكم ينطوى على خطأ فادح .

وأعظم الابتكارات العربية هي في مجال الرياضيات والفلك
وعلم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد .

وتقول الدكتور سجيريد هونكه في كتابها « شمس الله
تشرق على الغرب » : يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب
لسكى يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب ، هذا الشعب
الذي أثر بكل عمق في مجرى الأحداث العالمية والذي يدين له
الغرب والإنسانية جمعاء بالشىء الكثير .

ولعل التعصب هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات العرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية فى الحضارة الأوربية . حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى وجهاتها وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون لشد ما يغبن حقهم من يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم العربى بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم ، والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

إن قواميس اللغات الأوربية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها .

وكان العرب يعرفون النجوم وحركاتها ويفهمونها أعظم من الإغريق والرومان ويسمونهم بأسمائها ويجمعونها فى كوكبات تمثل مشاهد حياتهم اليومية .

٦ وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة معينة ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات ، بل يقومون بالمئات منها ، وقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون من أدوات المشاهدة وبذلوا عناية أعظم في استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها ، منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم بصورة متزايدة الدقة .

لقد كان النور الذي أحدثته الشرارات المنطلقة من العبقريّة العربية فائقا للغاية .

ولعل الطب هو أهم مجالات التفوق العربي .

في تلك الأيام كان منح البركة والتعاويد والصلوات هي أساليب العلاج الرئيسية التي يطبقها أطباء الغرب في سبيل تخليص البشر من أدوائهم الجسدية !

إن مآثر العرب الخالدة لتقدم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية وإن العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمي ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة



الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام ، وأصبحت الطريقة الاستقرائية هي الطريقة العلمية الأساسية .

إن الفكر الغربى لم يستيقظ من ذلك الحذر الذى أثقل عليه طوال قرون بل طوال ألف عام ، ويفرد جناحيه لى يطير إلا بعد ما امتلك المعجزات العربية فى الميادين التقنية والإدارية ثم تبنى هذه المعجزات على المستوى الحضارى ، .

✓

✓ ١٢٨

الفنية الخامسة

الإسلام والنفس الإنسانية

(١)

حاولت قوى الاستعمار والغزو الثقافي أن تفرض على الفكر الإسلامي في مجال النفس والأخلاق مفاهيم تختلف اختلافاً أساسياً مع مقومات هذا الفكر، ومتعارضة أساساً مع مقررات الإسلام. وقد ظهرت نظريات متعددة في السنوات الأخيرة تجرى مجرى الفصل بين الأخلاق والسلوك، وبين الدين والمجتمع، وتحاول أن تفرض مفهوماً غريباً كل الغرابة على النفس العربية الإسلامية التي تستمد شخصيتها وذاتيتها ومزاجها النفسي والاجتماعي من الإسلام الذي صاغها منذ خمسة عشر قرناً. وتقوم هذه النظريات على إعلاء الغريزة واعتبارها مصدراً أساسياً لكل تصرفات الإنسان والدعوة إلى إطلاقها والتحذير من أخطار ما يسمى الكبت والأمراض النفسية. وكذلك الدعوة إلى تأكيد الذات وتحقيقها بحرية التصرف دون تقدير للضوابط، التي تحفظ كيان الفرد أو الحدود، التي تحفظ



علاقات الأفراد وذلك في مواجهة خطر الموت أو الحرب الذرية .
وقد تعددت هذه النظريات واستشرى خطرهما وأثرهما
في الفكر العربي والمجتمعات الغربية تحت تأثير عوامل تاريخية
بعيدة المدى فرضت هذا التيار منذ وقت بعيد .

وكان ذلك نتيجة للصراع القوى الذي قام بين المسيحية وبين
الفلسفة اليونانية ، وفي مواجهة كشف العلم ومدى تقبل الطبيعة
الأوربية للدين ، ومدى نتائج ذلك الصراع الضخم بين العقائد
السموية والفلسفات الوثنية ، وما جرى من تحريف واضطراب
في قيم هذه العقائد .

ويصور الدكتور (محمد البهي) هذه الأزمة الضخمة في الفكر
الغربي والمجتمعات الغربية فيقول : (١) نشأت هذه الفلسفة في المجتمع
الأوربي في القرن التاسع عشر ، وكانت نشأتها نتيجة صراع بين
ما للإنسان كإنسان ، بغض النظر عن قوة أخرى خارجة عنه ، وبين
الإنسان كرسول وكبشر بقوة أخرى خارجة عن الإنسان
و ذات صلة وثيقة بتوجيهه ، نشأت نتيجة صراع بين الفلسفة
المثالية الإنسانية ، وبين الاتجاه الإلهي في الكنيسة الكاثوليكية .
وقد كان صراعا مريرا وطويلا الأجل .

(١) « الإسلام والفلسفات المعاصرة » : للدكتور محمد البهي .

والفلسفة المثالية أو الفلسفة الإنسانية تقصد إلى الغرض من رسالة
الوحي أو بالأحرى إلى الغرض من رسالة أولئك الذين يتحدثون باسم
الوحي ، وهم رجال الكنيسة ، ولم يقصدوا إلى ذلك إلا بعد
ما عاينوا أخطاء الكنيسة في سبيل توجيه الفرد والمجتمع الأوروبي .
فالكنيسة كانت تملى إملاء ما يعتقد الفرد وما يقوله
وما يسير فيه في جانب البحث والفكر والسلوك ، وكانت تتخذ
من نفسها وسيطا في تحديد مصائر الأفراد وفي صلتهم بالله ، وكانت
تعطى لهم من صور الاعتقاد وتطالب إليهم من أداء الرسوم ما يقف
عنده العقل الإنسانى مفكرا ومتسائلا : لماذا ؟ ثم لا يستطيع أن
يجيب على تساؤله هذا ولا أن يحصل على جواب له من المختصين
بشئون رسالة الوحي وهم رجال الكنيسة ، فصكوك الغفران ،
وعقيدة التثليث ، ورسوم كثيرة في العبادة ، وامتزاج الطبيعة
الإنسانية بالطبيعة الإلهية ، أو حلول ما لله فيما للإنسان كان دائما
محل تساؤل من العقل الإنسانى الخاضع لإيمان الكنيسة .

ولذا نشدت هذه الفلسفة المثالية الحرية ، نشدت حرية الإنسان X
في تفكيره وحرية في تخطيط طريق سلوكه ، وحرية في تحديد
مصيره ، وطلبت إلغاء اعتبار صلة الإنسان بقوة أخرى تسمى
ما تسمى من أسماء ، أو تنعت بما تنعت من صفات .



وكانت ترى أن الحرية هي كل شيء ، وجعلت من الإنسان سيداً لنفسه وسيدا على ماعداه في كونه ، خاصته - كما تقول - من الرق في التأثير بغيره وفي الاندفاع في طريق لم يرسمه الإنسان بنفسه ، ومن هنا سميت بالفلسفة الإنسانية .

ولأنها عظمت حرية الإنسان والقيم الإنسانية الأخرى ، وهي قيم تتصل بطاقاته وإمكانياته في الخلق والإبداع ، سميت فلسفة مثالية .

ولأنها أنكرت ماعدا الإنسان في وجود الإنسان ومحيطه ، واشتبكت في صراع وفي كفاح مع الكنيسة وتعاليمها ، ورمت الكنيسة بالجمود والرجعية وباسترقاق الإنسان واستذلاله ، ورمتها الكنيسة بدورها بالإلحاد والكفر والوثنية لأنها بدلا من أن تؤمن بالله آمنت بالإنسان ، وباستطاعته في الخلق والإبداع ، وطال الصراع بين الاتجاهين واستغرق القرن الثامن عشر كله .

وجاءت الفلسفة المعاصرة ، وهي الفلسفة المادية الواقعية ودخلت في الصراع مع الفلسفة الإنسانية المثالية ، ومع الكنيسة وتعاليمها ، ورمت الفلسفة المثالية بأنها فلسفة خالية من حقائق الواقع ، وأنها جوفاء فارغة لاغنى فيها ، كما رمت الكنيسة وتعاليمها والدين عامة بالرجعية والتخلف والجمود ، ونعتت نفسها

بالتقدم والتطور، وأمعنت في تأييد ما نعتت به نفسها وما وصفت به غيرها من اتجاه فلسفي أو ديني .

وهكذا أخذت الفلسفة المادية تذيب دعواها المضادة للقيم التي جاءت بها الأديان والشرائع السماوية معارضة بها كل قيمة وكل مفهوم وخاصة في مجال الأخلاق والنفس والتربية وتنظيم المجتمع وعلاقات أفراد ونظام الأسرة .

وكان أبرز هذه الدعوات : الفرويدية والوجودية .

وإن كان من وراء هذه الدعوات عشرات من النظريات والدعوات التي تقوم في مجموعها على أساس الاستمداد من الوثنية اليونانية والتي يمكن أن توصف في مجموعها بأنها تحول خطير جاء نتيجة التحدي الصهيوني اليهودي العالمي الذي ارتبط تاريخه بظهور هذه المذاهب جميعا في مجالات الاجتماع والنفس والأخلاق .

ثم كان أخطر ما في هذا التطور وهو انتقال ميدان المعركة بين العقائد السماوية والنظريات الفلسفية إلى العالم الإسلامي في ظل نفوذ الاستعمار ، وضغط القوى الطامعة في السيطرة ، وواجهتها الحركة الصهيونية التي تقف وراء مخططات الغزو الفكري والتخريب .

ولا شك أن المسلمين والعرب يواجهون اليوم حملة ضارية من

أخطر حملات الحرب النفسية والتشكيك وتشويه المفاهيم والقيم X وقد زادت هذه الحملة عنفا بعد (نكسة ١٩٦٧) واحتلال القدس

وهى تستهدف التأثير على أمتنا وحملها على الاستسلام والهزيمة ، وإذا كانت أمتنا قادرة دائما على كشف هذه المخططات واعية لهذه المؤامرات ، فإن من أخطر ما يواجهها الآن هو الحرب فى داخل القيم .. هذه القيم التى هى السلاح الوحيد والأقوى فى مجابهة الغزو ومواجهة العدو .. ذلك أن محاولة تحطيم مقومات أمتنا النفسية والأخلاقية والدينية إنما هو الطريق إلى إخراج أجيال ضعيفة مهزوزة العقيدة ، رخوة طرية لا تستطيع احتمال المقاومة والوقوف فى وجه العدو .

ولا شك أن أبرز أوجه الخلاف بين فكرنا الإسلامى وبين هذه الفلسفات هو :

أولا : أن الإسلام يربط بين الدين والأخلاق فى مختلف مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

ثانيا : قيام الضوابط فى الإسلام كأساس لبناء المجتمع ، بينما تهدف الفلسفة المادية الوافدة إلى تجريد الفرد من كل الضوابط .

ثالثا : قيام الإسلام أساسا حول مفهوم الإنسان على أساس تكامل بين الروح والجسد ، وتوازن بين الدنيا والآخرة وإقرار كامل بالبعث والجزاء والمسئولية الفردية ، وأن الموت ليس هو نهاية الحياة .



رابعاً : إعلان الجانب الجسدى والحيوانى فى الإنسان والإقرار بوجوده ، والدعوة إلى تنظيمه .

وربما كانت صيحات الجنس الغريية هى رد فعل للتعالم الرهبانية القاسية التى قامت على بغض الجسد والإسراف فى كبح رغبات البدن الطبيعية ، بينما يوازن الإسلام بين الروح والجسد ، ويفتح للرغبات الحسية آفاقاً كريمة لتحقيقها .

* * *

هذا ومن الأمور الواضحة المسلم بها أن آراء الفلاسفة ليست إلا نظريات ، وهى ليست بذلك علماً يقينياً قائماً على التجربة ، فالتجربة لا توجد إلا فى مجال العلم وحده ، أما فى مجال النفوس والمشاعر والعقول ، فإن كل ما يعرض لها ليس إلا نظرية فرضية تصح وتخطئ ، فمن قصر النظر الإيمان بها واعتناقها كحقيقة واقعة .

٦ والنظريات الفلاسفية تتغير من فيلسوف إلى آخر ، ومن عصر إلى آخر ، ومن بيئة إلى أخرى ، وهذه النظريات قائمة بأصحابها وعصورهم وبيئاتهم ، وهى نوع من رد الفعل لظروفهم وواقعهم ولتحديات مجتمعاتهم .

ولا نستطيع أن ننسى هنا حقيقة أساسية قد ثبتت بمراجعة



تراجم أصحاب النظريات الفلسفية ، فقد ثبت أن معظمهم كانوا مصابين بأمراض وعاهات لا تضع أحدهم في صف الإنسان السوى (فقولتير) كان مريضاً بالصدر، (ونيتشه) كان مضطرب العقل وقد جن جنونا حقيقيا في آخر أيامه ، (ومارسيل بروس) كان مصابا بحالة نفسية غريبة ، وكان يعاني اضطرابا عصبيا مستديما (ويكاسو) كان من المجانين الخطرين، (وبودلير) كان مضطرب العقل والنفس، (وفرلين) لم يكن يفريق من الخمر، وكان (فرويد) يقاسى عقدة الاضطهاد واضطراب النفس ، (وسارتر) كانت لأولياته القاسية أثرها العنيف على مزاجه النفسي وآرائه .

لم تكن آراء النظرية الفرويدية إلا مجموعة من الافتراضات والتقديرات التي كانت ثمرة عدة مصادر :

أولا : تجارب (فرويد) مع المرضى والمصابين بالاضطراب النفسى وقد قصر أبحاثه عليهم أربعين سنة فلم يلتق فى دراسته بأى شخصية سوية .

ثانيا : اتخذ (فرويد) من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة للبحث وعمد من خلالها إلى استخلاص قوانين عامة بينما لم يكن فرويد إلا فرداً يعيش فى مجتمع يضطهد اليهود وينتمى إلى أقلية مكروهة وأقل ما ينسب إليها : حب المال والتعصب والطموح الاقتصادى .

ثالثا : كان (فرويد) نفسه مريضا ، فقد ذكر الدكتور (إيرفست جونز) أنه كان خلال طفولته ينسى نفسه فى الفراش ، وكان فى شبابه ينسى الأسماء ، وكان يدخن عشرين سيجارا فى النهار ليهدى من سوراته العصبية ، وكان دائم العزلة ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا .



هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن نظرية (فرويد) لم تكن
هى الثمرة الحقيقية لمدرسة التحليل النفسى ، ولكنها كانت وجهة
نظر منها ، حيث اختلف معه شريكاه فى النظرية (ادلويونج)
الذان رفضا إقرار وجهة نظره فى إعلاء الجنس فانفصلا عنه .

وكان ما ذهب إليه (فرويد) أن الإنسان فى جوهره حيوان
كغيره من الحيوانات وأن غريزته الجنسية هى الأساس الأول
لسلوكه فى الحياة .

وأن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطه
وأن الروح لا وجود لها على الإطلاق ، وأن الضمير والدين
والأخلاق والقيم العليا فى حياة البشرية تنشأ من عقدة الجنس .
فهو على الجملة يفسر النفس والحياة كلها من خلال الجنس .

* * *

أما (ادلر) فكان يرى أن الشعور بالنقص هو أهم فى الأمراض
العصبية من الأمور الجنسية التى بالغ (فرويد) فى تصوير خطرها
وعنده : أن الحقيقة الأساسية فى الأمراض العصبية هى الشعور
بالنقص ، وكل إنسان يتمتع بإرادة أساسية فى القوة ، وبدافع
ملح نحو السيطرة والتفوق ، فإذا وجد أنه ينقصه شئ ينساق
إما إلى الموت أو نحو جعل نفسه متفوقا بطريقة ما . وعنده

أن حافز تأكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة ، لذلك فهو يتعرض للتثبيط من قبل محيطه ومن قبل حساسية الفرد الخاصة ، وهكذا يكون هذا الحافز منبع كل إنتاج من جهة ، كما يكون مصدر السلوك الخاطئ ، وعدم التلاؤم من ناحية أخرى .

ولا ينكر (ادلر) أهمية الدافع الجنسي ولكنه يعتقد أنه ليس له تلك الأهمية الشاملة في حياة الطفل التي ينسبها إليه (فرويد) . وعند (ادلر) أن التفوق والسيادة بحسبانها هي الغريزة السائدة في الإنسان تجد وسائل تحقيقها بغير الحب الجنسي .

ويرى (ادلر) أن لكل إنسان قصدا في الحياة ، وأن لكل إنسان تقريبا نقصا جسمىا أو اجتماعيا ، وأن العواطف لا تسوق الإنسان X وإنما الإنسان هو الذى يخترع العواطف وأن قصد الإنسان في حياته هو موضوع أحلامه وخوابه ، وقد يكون أحيانا سببا لأمراضه .

وعنده أيضا أن هذا النقص الجسمى أو الاجتماعى مع الرغبة المألحة في التفوق ، هى التى تدفعنا إلى أن نعتاض عنها بكفاية أخرى ، ويرى (ادلر) أن النقص يكاد يكون هو السبب الأساسى للنبوغ لأنه يبنى الشخصية من جديد ، ويبحث النفس على التطلمع والاستكمال (١) (١) عن بحث هام عن فلسفة (ادلر) للدكتور (فاخر عاقل) .



وقد عارض كثير من العلماء ما وصل إليه (فرويد) .
يقول (كارل فلوجل) في كتابه : (الإنسان والأخلاق
والمجتمع) :

« إن مكتشفات التحليل النفسى ونظرية (فرويد) فى ميدان
الغريزة الجنسية قد صدمت شعور كثير من الناس فهم يشعرون
أن علماء النفس حين يحاولون فهم البواعث التى تتركز عليها
القيم الخلقية والدينية والجمالية ، قد يحطمون هذه القيم عينها بل
لعلهم يعملون فعلا على تحطيمها » .

وحذر (فلوجل) من نتائج هذه الأبحاث وخاصة ما يتعارض
منها مع النظم والعقائد وقال :

« ربما كان علماء النفس قد يكونون هم أنفسهم من المصابين
بتلك العقدة التى يحلو لهم الحديث عنها ، ولذلك جاءت معظم
أحكامهم مشوبة بالهوى ، قائمة على معرفة مبتسرة ، وقال : إن علم
النفس علم مهمته مقصورة على وصف حقائق الحياة العقائية
وتصنيفها فلا شأن له بالقيم ذاتها » .

وقد أكد كثيرون من الباحثين ، ومنهم من تابع
(فرويد) فى كثير من رأيه ونشر فكره فى اللغة العربية ،

إن ما كتبه (فرويد) لا يمكن أن يسمى علماً ، وإنما أكثره
فلسفة وأقله علم .

* * *

أ وأشار كثير من الباحثين الذين تابعوا مناهج النفس
والتحليل النفسى إلى أن نظرية (فرويد) فى حد ذاتها ليست
إلا وجهة نظر معينة لم تثبت طويلاً فى مجال التجربة . وقوامها
قوله : « إن معارضة رغبات الطفل فى صغره تؤثر فى تصرفاته
إذا كبر » .

وقد عارض هذا رأى علماء الإحصاء ، وعلماء البحث
النفسى والاجتماعى الذين أعلنوا بعد دراسات طويلة بضرورة
استخدام (الضرب) كوسيلة لتقويم الطفل ، ووصل العلماء
إلى ما يناقض نظرية (فرويد) مناقضة تامة ، ووصلوا
إلى أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة
والوسط والحالة الاجتماعية فلا سبيل لإخضاع تربية الطفل
لنسق واحد .

* * *

كما عارض (فرويد) كثير من الباحثين فى مجمل آرائه ،
وقالوا : « إن (فرويد) أقرب إلى المتنبيين منه إلى العلماء

ولأنه يرمى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمي أو السند الواقعي .

ولأنها تقوم في أغلبها على الافتراض ، ثم يصدق ما يفترض ، فيبني عليه ، وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل ، وفيما يتعلق بالغرائز وهو يسميها الدافع الجنسي ، فإن الدراسات العلمية قد أثبتت بما لا يقبل الجدل : أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهواء أو الشراب أو الطعام .

ثم إن الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضرورياً ، وقد أمكن تنظيم تصريف الشهوة والتسامي بها بكثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقى .

* * *

ويرى العلماء المتخصصون في مجال النفس أن نقطة الضعف في (فرويد) « كعالم » أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة عامة ، وحاول عن طريقها الوصول إلى قوانين شاملة ، بينما هو يهودي يعيش في (النمسا) المتعصبة ضد اليهود ، فكيف

يمكن أن يتخذ من وضعه كمنظومة في مجتمعه قاعدة لنظرية يطبقها على الإنسانية كلها .

والمعروف أن كل فلسفة في الحقيقة إنما هي رد فعل لنفس الفيلسوف وعصره ومجتمعه ، وقد عرف عن (فرويد) أنه كان مريضاً ، وأنه كان يمر بأزمات نفسية وهو يعالج « مريضة » تتردد عاياه بالهوى الجنسي هي « سيسلي » المصابة بعقدة (أوديب) فبينما كان (فرويد) يقوم بعلاج هذه الفتاة تكشف له عن نفسه أنه مصاب بعقدة (أوديب) ، وأنه كان يتجه إلى أمه ويغار من أبيه وأنه اتهم أباه ظلماً بجريمة أخلاقية رهيبة .

٦ إن أسطورة (أوديب) الإغريقية التي تتحدث عن أن أباه ارتكب جريمتين فقتل أباه ، وارتكب خطيئة أخرى ثم عاقب نفسه بأن فقأ عينه ، هذه الأسطورة جعلها (فرويد) حقيقة يؤمن بها .

٧ ومن أجل هذا أعلن كثير من الباحثين وفي مقدمتهم الدكتور (ناتان كلاين) نبذ طريقة (فرويد) في العلاج النفسي والعقلي . هذه النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة ، وقال : إن هذه النظرية ليست إلا معولاً هادماً لعقول الشباب ، ومخدراً مميتاً لنفوس أبناء الشعب .



وقد حلت نظرية (إيفان بافلوت) محل هذه النظرية .
ومؤداها أن البيئة هي المسئول الأول عما يصيب الإنسان من
انحراف نفسى أو عقلى .

هذه هي بجمال آراء الغربيين فى نظرية (فرويد) ، إذن فلماذا
وهى النظرية الفاسدة المهلهلة إلى هذا النحو استطاعت أن تشق
طريقها فى عنف وتكتسح كل النظريات وتلتحق بالجامعات
والمناهج العلمية حتى فى بلاد العالم الإسلامى ، وهى نظرية غريبة
عنه كل الغرابة ، وعنده من مناهجه فى النفس ما يتفق مع ذاتيته
وقيمه وتراثه النفسى والاجتماعى .

(٣)

كشف الدكتور (صبرى جرجس) فى كتابه (التراث اليهودى الصهيونى فى علم النفس ونظرية فرويد)^١ عن السر فى هذا التركيز الذى قامت به القوى المسيطرة على الإعلام والآداب والفنون فى الغرب على نظرية (فرويد) واحتضانها على هذا النحو الغريب بالرغم من أنها لم تكن صحيحة علمية ، وفى نفس الوقت خفتت أصوات النظريات الأخرى المعدلة والمصححة .

٦ يقول الدكتور (صبرى جرجس) :

لفت انتباهى حقيقة كبرى : تلك هى العلاقة الوثيقة بين : (فرويد) رجل العلم والتحليل النفسى والفكر العالمى من ناحية وبين التراث اليهودى الصهيونى والصهيونية والعمل السياسى الدينى العنصرى من ناحية أخرى ، وكما تبدى لى ليست علاقة مصادفة ولكنها علاقة أصل ومسار وهدف .

وأشار إلى أن فرويد وأصحابه الذين حملوا لواء فكرته من بعده كانوا جميعاً من الصهيونية : (ساخس ، ورايك ، وسالزمان ، وزيلبورج ، وشويزى ، ووتيلز ، وفرانكل ، وكاتز ، وفينسكل) .

وأشار إلى عدة عبارات وردت في كتابات يهودية لفتت نظره إلى ما يراه الآن من علاقة بين الصهيونية ونظرية (فرويد) .

وذلك ما أشار إليه «باكان» في بعض خفايا التراث اليهودي الصهيوني لها علاقة بالتحليل النفسي بل إلى ما ذكرته صراحة الكاتبة (ترود ، وايز ، دوز ، مارين) عن كيف تحتقر اليهودية الصهيونية العقل الغربي مزيفة في سبيل ذلك وقائع الماضي وأحداث الحاضر ، آمنة بعد ذلك من الافتضاح ، ومطمئنة آخر الأمر إلى التصديق .

ثم يتساءل الباحث كيف لم ينتبه أحد وقد ناهز عمر التحليل النفسي الفرويدى سبعين عاما؟ وكيف لم ينتبه أحد إلى هذا الأمر؟ وكيف فأتت هذه العلاقة بين الفكر التحليلي والفكر الصهيوني ، جميع من شغلهم التحليل النفسي من تابعوه ومن نقدوه ؟

ويقول : إن مفاهيم التحليل النفسي قد قدمت في أواخر القرن الماضي في إطار علماني ، ثم ما لبثت الأبواق الخفية والمقنعة للدعاية اليهودية الصهيونية أن أحاطت هذا الفكر وصاحبه بهالة من النزاهة الفكرية ، منعت حتى أعنف معارضيهِ



من أن يستريبوا حتى في أصوله وإن أنكروا مفاهيمه ، وذلك على الرغم مما تسرب في كتابات (فرويد) وأصحاب فكره من عبارات تكشف عن يهودية صهيونية واضحة التعصب .

٦ وقد فات مدلول هذه العبارات الأكثرين من الناس ، حتى رفعت الصهيونية العالمية كل الأقنعة التي اتتستر وراءها ٧ وظهرت واضحة لا خفاء فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من ناحية ، وحتى انصرف أحد أبنائها : (دافيد باكان) ينقب في حفريات التراث اليهودي الصهيوني محاولا الربط بينه وبين الفكر الفرويدي .

ويقول الدكتور (صبرى جرجس) : إن الفكر الفرويدي المنبعت أصلا من التراث اليهودي والصهيوني كان يهدف أساساً إلى تقويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب ، وإن هذا الفكر لم ترد به أية دعوة انحلالية صريحة (وكذلك الوجودية) وإنما كانت الإيماءات الانحلالية تتخلل المفاهيم الفرويدية ، ثم قامت أجهزة الإعلام الصهيوني بتقديم هذه المفاهيم لتنظيم الأدب والفن على نحو يغري الناس بالتحلل ويسر لهم سبله .

والمعروف أن الدعوة الضمنية وخاصة إذا مست (قيا)



• يحرص الناس على بقائها وقد تكون أشد فاعلية في زعزعة إيمانهم بها من الهجوم الجريء السافر عايتها .

ويلاحظ الدكتور (صبرى جرجس) أن التحليل النفسى (الفرويدى) يكون لدى أصحابه وحدة عضوية وأيدلوجية إما أن تقبل كلها أو ترفض كلها ، ولا سبيل فيها إلى التجزئة ، ثم يصل الباحث إلى الحقيقة التى تقول بأن هناك علاقة أكيدة بين نظرية (فرويد) فى النفس التى هزت الفكر الإنسانى كله وأثرت فيه وبين الصهيونية ومخططاتها ، وأن هذه النظرية وتطوراتها تسيرجنباً إلى جنب مع المخطط الصهيونى فى مجالاته المختلفة عاملة على تحقيق الأهداف الصهيونية .

ولأن التحليل النفسى الذى ابتدعه (فرويد) مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين عاماً ، لم يكن « علماً مجرداً » ولكنه وثيق الصلة فى جوانبه المرضية والحضارية مع الفكر اليهودى الصهيونى الذى ظهر فى التراث منذ عهد التوراة وما بعدها ، وأنه من أجل ذلك سخرت الصهيونية اليهودية حربها الإعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة له فى أوسع نطاق مستطاع حتى أصبحت (الفرويدية) من أقوى العوامل أثراً فى التوجيه الفكرى والخلق لعالم الغرب ، وقد كان (فرويد) يهودياً

حقا ، وعضوا عاملا ونفريا في بعض المنظمات وصديقا شخصا
(لهرتزل) .

وعندنا أنه لا يستبعد أن يكون (هرتزل) هو الذي أشار
عليه بهذا العمل ضمن مخطط الصهيونية السياسي والاجتماعي
للسيطرة على الحضارة والمجتمعات العالمية .

٦ ويقول الدكتور (صبرى جرجس) أخيرا : « إن العلاقة
العضوية والمصيرية والمصلحية بين اليهودية والصهيونية والاستعمار
الامبريالى من ناحية وبينها وبين التحليل النفسى الفرويدى من
ناحية أخرى قد جعلت من الحركات الثلاث « ثالوثا » قوامه
العنصرية ، وروحه الاستعلاء ، ووسياته الإفساد ، وهدفه
الاستغلال ، وهو بشكل يواجه البشرية ومستقبلها » .

ويمكن العودة إلى ما دعت إليه الصحافة الصهيونية في أعقاب
عدوان يونيه ١٩٦٧ حين طالبت بالمزيد من الحرب النفسية ضدنا
ودعت إلى المضى في استخدام علم النفس (الفرويدى طبعاً)
أعمق وأدق ، وذلك لأن علم النفس علم يهودى وخائى باليهود
بصورة أن يكونوا أقدر الناس على استخدامه .

٦ ولكى تكتمل الصورة لابد أن نورد هنا ما جاء في
بروتوكولات حكماء صهيون من إشارة مماثلة : قالت البروتوكولات :



« لقد رتبنا نجاح (دارون ، وماركس ، ونييتشه) بالترويج
لآرائهم وأن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر
غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد » . وقالت البروتوكولات :
« يجب أن نعمل لتنهيار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا
إن (فرويد) منا ، وستظل تعرض العلاقات الجنسية في ضوء
الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه
الأكبر إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .
وبروتوكولات حكماء صهيون ترسم مخطط السياسة الصهيونية
اليهودية للسيطرة على العالم وقد كتبت عام ١٨٩٧ .

(٤)

أما النظرية الثانية التي تحاول أن تواجه الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى بقيم ومفاهيم تتعارض مع أصول هذا الفكر ومقوماته المستمدة من القرآن والقائمة على التوحيد ، فهى النظرية الوجودية التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظرية الفرويدية وتسكاد تكون ثمرة لها امتداداً من الفلسفة المادية فى تطورها وغايتها .

فالفلسفة المادية : لا تسلم بوجود الروح ولا القوى الغيبية وهى لا ترى أن القيم الاجتماعية العقلية والتعاليم الروحية قيماً باقية لا يعترىها التبديل والتغيير ، وهى ترى أن الدين ليس فطرة ، والجريمة ظاهرة سوية ، والزواج ليس من الفطرة ، والجنس هو الدافع الوحيد للشخصية ، ومفهوم الإباحة والجنس هما أبرز دوافع الإنسان ويجرى هذا الاتجاه كله من امتداد عنوان « الإنسان حيوان » .

وتقوم النظرية الوجودية على أساس : رفض الحياة والقول بالعدمية وهى تربط نفسها بالدعوة إلى تحرير الإنسان من كل القيود ، كما تقوم النظرية الفرويدية لتحرر الإنسان من الكبت .

فالنظريتان تقومان حول أخلاق الإنسان ونفسيته وتستهدفان تدمير وجوده بتحرره وإطلاقه من كل القيم والمقومات - والضوابط .

والوجودية في نظر الباحثين في مجال الفلسفة الغربية هي
« فلسفة (١) عدمية سلبية من ألفها إلى يائها ، تود أولا وقبل كل
شيء أن تقتل التفكير وتشل القدرة على استخدام العقل ، فهي
تقول يجب أن تقتل في نفسك العقل والمنطق إذا أردت لنفسك
« خلاصا » ، إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بهما » . والمذهب
الوجودي « قائم على عدم الاعتراف بالعقل ، وعدم الاعتراف
بالعقل هو عدم اعترافه بكل شيء ، ولا ينتبه إلا إلى ذلك
الجزع النفسى الذى يملك على الإنسان جسده ونفسه جميعا ، وإلى
ذلك الشعور بالقيء أو الغثيان الذى يسيطر عليه عندما يواجه
العالم .

2 وتنادى الفلسفة الوجودية بنفى الألوهية والدعوة إلى عبادة
الذات ، فالإنسان فى نظرها يجب أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع
ويطلق لحيته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع
والم لذات باعتباره إله نفسه وسيد كيانه .

وفى رواية الذباب « لسارتر » يقول : أurst مخاطبا
« جويتر » رب الأرباب :

(١) الأستاذ (يحيى هوبدى) كتاب عن الوجودية .

« سيدى الإله : كان عليك ألا تخلقنى حراً ، وما إن خلقتنى حتى انفصلت عنى وتخلّيت عن نسبتي إليك فإنما لم أعد ملكاً وليس ثمة فى السماء من خير أو شر وإنسان يصدر إلى الأوامر لن أعود أخضع لشرعك ، ولست محمولا على الخضوع لغير شريعتى ، أنا ، لأننى إنسان يا جويتر ، وعلى كل إنسان أن يتسكّر طريقه بنفسه .

وتعد الوجودية : ثورة على مفهوم الدين فى المجتمع الغربى امتدادا لثورات (نيتشه وفرويد وماركس) .

٦٧ وقد أعلن أحد دعاة البارزين « هر جرد ، حربا لا هوادة فيها على الإيمان المسيحى كله لأنه كما يقول لا صلة بينه وبين العقل ، فإذا عدنا إلى شخصية (كيركجورد) إمام الوجودية فى العصر الحديث وجدناه شخصية منحرفة ممزقة ، شأنه فى ذلك شأن شخصية (نيتشه) ، أمه كانت خادمة تزوجها أبوه سرا ، وكان هو أحذب مما ضاعف علته النفسية ، وزاد شعوره بالنقص ، فاعتزل المجتمع وعاداه ، وكانت مؤلفاته العشرون هجوما عنيفا على معتقدات مجتمعه الدينى وهدما للدين الغربى ، ودعوة للناس إلى عدم الإيمان بأنفسهم ، ومن هنا كانت الوجودية دعوة صريحة ضد المسيحية الغربية ومحاولة لهدمها وحربا سافرة على الأديان



كلها ، وقد تابع (سارتر) الفلاسفة الغربيين الذين حاولوا منذ ١٨٨٠ إنشاء « أخلاق لادينية » هذه الدعوة الأخلاقية المنفصلة عن العقيدة ، والتي تجعل أساسها عدم وجود « إله » وقد جاءت نظرية (سارتر) كرد فعل لشخصيته وأزمات حياته ولتحديات الحرب العالمية الأولى والثانية للمجتمع الأوربي عامة والفرنسي خاصة .

ومجمل آراء الوجودية من نصوص سارتر :

- الله افتراض غير نافع وهو يكلفنا كثيرا فنحن نلغيه .
- هذا العالم وجد بغير داع ويمضى لغير غاية .
- يوجد كل موجود بدون سبب عقلي وبدون داع وتمتد حياته بواقع من الضعف ثم يموت بالمصادفة .
- العالم كله خداع في خداع ، إننا موجودون بدون سبيل عقلي وبلا داع والعالم يمضى لغير غاية .
- وملخص النظرية الوجودية :

● إن أزمة العصر هي غرابة الإنسان عند ذاته فإن التقدم التكنولوجي قد جعل منه ترسافي ما كينة أو قطعة غيار في جهاز : وتداء الوجودية الإنسان فتقول :

أنت مطلق الحرية فاصنع ماشئت فإن الحياة كلها سخرت
يورث القلق والضجر .

وقد وجه الغريون النقد للنظرية الوجودية من حيث إنها .

١ - تجعل الإنسان في عزلة عن الجماعة .

٢ - أنها تستغيب إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية .

٣ - أنها تبطل الأوامر الإلهية وتنكر القيم الخالدة .

* * *

٦١
وقد وصفت الفلسفة الوجودية بأنها فلسفة الانحلال أو فلسفة العدم ، إشارة إلى أنها فلسفة الحادية لا تؤمن بما وراء الحياة وإن كانت تؤمن بالحياة وحق الفرد في أن يعيش ، وهي في نظر الاجتماعيين مذهب فلسفي منحل يقوم على تفكيك الوعي العام ، وفي نظر الأخلاقيين أنها فلسفة اجتماعية رجعية تقوم على أساس إنكار الوجود الإلهي . فهي تبدأ برفض التبعية للدين ملتزمة أن تتخذ لها موقفا من مشكلة إرادة الإنسان وحريته فهي تقول إنه « إذا كان الله ليس موجودا فكل شيء مباح » وهذه نقطة البدء في فهم الوجودية كما قال (سارتر) نفسه من هنا يتضح أن الوجودية لا تعنى من الحرية إلا الفوضوية في أجلى معانيها .

كما تنكر الوجودية كل محصول البشرية من التجارب في الماضي

ولا تأبه به ، بل تنادى بضرورة تجاهله وأن يبدأ الإنسان
من جديد تماما كالإنسان البدائي .

— وتحقر الوجودية العلم وتنكر قيمته وليس في الوجودية
شيء واحد يفتح الطريق أمام أى تصرف أو عمل لتغيير الواقع
الاجتماعى ، بل على العكس من ذلك تحاول أن تغرق كل سبيل
العمل من أجل مجتمع أفضل وسيطرة أكبر على الطبيعة .

ويصور (سارتر) موقفه تماما حين يقول : لقد صنعت ذاتى
لأنى لم أكن ابنا لأحد ، والإنسان لا يوجد بل يصنع نفسه .

فذهب (سارتر) مستمد من تحديات حياته شخصيا ، فإنه ولد
وليس له أسرة ومات أبوه فى الشهر الثالث ، ولم تشعره أمه بحنان
أمومتها ، وكانت الأسرة التى عاش فيها مكونة من جدين عجوزين
كانا يؤذيانه هو وأمه ويشعرانها بأنهما ضائعان .

وقد أدى هذا الجو النفسى (سارتر) إلى تكوين نظرية للبشرية
وهى نظرية مليئة بعطف مشوه أساسه الاحتقار فأنكر الكنيسة
ومن هنا أراد أن يؤكد ذاته بأن له رسالة وهو الطفل المنبوذ
فى مجتمع يعنى الأطفال العاديين .

وقد وصف الباحثون الغريون الوجدية : بأنها الملل والقلق



والعبث والسأم والرفض والتوتر^٦ والشعور بالاغتراب والغثيان^٧
وأنها مرض الإنسان في منتصف القرن العشرين وذلك على حد
قول (سارتر) : اليوم كغد ، والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشيء ،
ولا لذة ولا أمل في شيء .

ويقول (البير كامى) فيلسوف الوجودية : إن التمرد هو
الحل الوحيد لكل ما في الوجود من « لا معقولية » ، ويترتب
على التمرد كحل للتجربة العبثية : رفض كل التصورات الميتافيزيقية
خاصة فيما يتصل بقضية الحرية - وجود الإنسان ووجود اللحم
والدم ، وهو وجود محدود وبسبب المحدود لا ينبغي أن يطلب
الإنسان كليات لا سبيل إلى الوصول إليها .

والبير كامى كسارتر ، تقوم فلسفته الوجودية على :
اليأس والتمزق النفسى ، يقول : ما دمنا نتحدث فليس لآى
شيء معنى ، إن مغامراتنا البشعة لا جدوى لها .
ويقول : إن هذا اليأس والتمزق النفسى قد ولدهما الخواء
الروحى والفراغ ، وقد رافق الفراغ تمزق على النطاق الاجتماعى
فأصبحت البشرية شاردة لا تؤمن إلا بالمتاع .

^٦ وقد وصف (جاك برك) الوجودية بأنها ظاهرة زمنية عابرة^٨
لن تلبث الإنسان أن يتخطاها وهي ليست روحا .

ولست فلسفة الوجودية فلسفة جديدة بل هي قديمة قدم
الإلحاد والوثنية وأصولها موجودة في الفلسفة الإغريقية ومنها
استمدت علاماتها وأساطيرها فقد أنكر «أبيقور» وجود الآلهة
والبعث ودعا إلى اغتراف الحياة دون ضوابط أو حدود للحريات.

وقد ابتعثت القوى الهدامة^(١) هذه الدعوى ضمن عشرات
من المذاهب والدعوات التي أخذت تزداد سيطرة على الآداب
والفنون في العالم كله وتضيع المفاهيم الاجتماعية والنفسية
والأخلاقية كما ابتعثت هذه القوى مذاهب السحر والغوصية
والإباحة والإلحاد من الفلسفات القديمة وأعادت تصياغة مذاهبها ٤
ومفاهيمها على نحو عصرى في طابع علمى براق ، مستهدفة لإغراء
الشباب بها قبل أن يستكمل ثقافته الأصلية أو سن الوعى
والرشد الفكرى ، مستغلة عواطفه وغرائزه بشتى وسائل الإغراء
عن طريق وسائله المختلفة فى القصة والأغنية ومن خلال السينما
والإذاعة والصحافة .

والهدف واضح كما حددته الصهيونية العالمية والقوى
الاستعمارية فى مخططاتها .

(١) ظلت كتابات (كيركجورد) مجهولة نحو مائة عام ولم تترجم
وتتل هذا الاهتمام الشديد إلا أوائل هذا القرن .

وأمامنا تجارب واضحة كشفت عنها كتابات بعض المثقفين
الذين عجزوا في مطالع حياتهم من الحصول على مؤلفات غربية
وإسلامية تكشف لهم جوهر الإسلام وحقيقة الإيمان بالله
في أسلوب حديث ووفق مناهج العصر ، بينما وجدوا في أيديهم
أمثال (هكذا قال ذرادشت) لينتشيه و (لاعتراقات فنى العصر)
لشاتوبريان وغيرها من الكتب الأجنبية المترجمة إلى العربية
والتي تخوض تجربة الإيمان والإلحاد ، وقد أشار هؤلاء المثقفين
في مذكراتهم إلى أن هذه الكتب هي التي دفعتهم في طريق التحلل
والإلحاد حيث لم يجدوا مؤلفات تصحيح المفاهيم أو ترد على
الشبهات تعصمهم من الزلل .

(٥)

هناك سؤال هام : لماذا ونظرية النفس الفرويدية ، ونظرية الأخلاق الوجودية على هذا النحو من الاضطراب عليا ومن الشبهة الخطيرة في اتصالها بالصهيونية والغزو العالمي لقيم الأمم وعقائدها ، لماذا نخفل بهما ونروج مفاهيمهما في أوساطنا وفكرنا؟ ، إنما يرجع ذلك في الحق إلى آثار النفوذ الاستعماري التي لم تزال بعيدة الأثر في مناهجنا الفكرية والتربوية والتعليمية ! .

وإلى أمر آخر أشد أهمية وخطراً هو أننا قد نغفل عن أن للفكر العربي الإسلامي نظرية متكاملة في مجال النفس والأخلاق وهي نظرية أصيلة تستمد من مقومات الإسلام والقرآن ومن الذاتية العربية الإسلامية .

وهي نظرية تختلف اختلافا جوهريا عن نظرية (فرويد) في شمولها وفي ارتباطها بالقيم الإنسانية الأساسية التي لا سبيل إلى تجاهلها فضلا عن أنها نظرية بناء إنسانية ودفعها إلى القوة والنماء والتماسها الفطرة والحق .

وتقوم النظرية الإسلامية على دعائم أساسية أهمها : (١)

٧ أولا : أنها تأخذ السكان البشرى على ما هو عليه ولا تحاول
أن تقسره على ما ليس من طبيعته ، كما تصنع النظم المثالية ، مع
تهذيب هذه الطبيعة إلى أقصى حد مستطاع دون أن تكبت شيئا
من النوازع الفطرية ، أو تمزق الفرد بين الضغط الواقع عليه
من هذه النوازع وبين المثل العليا التي ترسمها له .

ثانيا : الإنسان في نظر الإسلام كائن لا هو بالملك ولا هو
بالشيطان ؛ مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر ، له نوازع
فكرية تربطه بالأرض ونزعة فطرية أيضا ترتفع به إلى السمو ،
يهبط ويرتفع في حدود طاقاته الطبيعية وعناصره المكونة له .

٧ ثالثا : الغاية العليا للإسلام إيجاد التوازن في نفس الفرد ،
بما يؤدي إلى التوازن في المجتمع وسيله أن يمسك الإنسان
من خيط الصعود ليساعده على موازنة الثقل الذى يجذبه
إلى الأرض .

(١) انتفعنا في هذا البحث بمراجعات هامة لكتاب « الإنسان
بين الإسلام والمادية » ، وكتابات الدكتور محمد محمد حسين والدكتور
محمد البهى .

والإسلام يكره فقدان التوازن ولو كان إلى أعلى ، لأنه
يحرص على أهداف الحياة العليا التي لا تتحقق البغير الاستجابة
لنوازع الأرض ، كما يهدف إلى تنظيم الوسائل التي يستجيب بها
الفرد لنوازعه حتى ترتفع الحياة كلها وتصبح كريمة .

رابعاً : لا رهبانية في الإسلام : الرهبانية ارتفاع بالحياة
عن نوازع الجسد وتطهير للروح ؛ ولكنها في الإسلام اختلال
غير متوازن يعطل أهداف الحياة .

خامساً : الإسلام يسعى إلى التوازن الدائم بين أهداف
الحياة ، وضرورات المجتمع ونوازع الفرد دون أن يطغى هدف
على هدف .

سادساً : الإسلام يعترف بالسكان البشرى كما هو فيحقق
رغبات جسده وعقله وروحـه ، كما يعترف بالنشاط الحيوى
للإنسان وبحق الفرد فى أن يزاوـل هذا النشاط فى حدوده المعقولة
التي لا تؤذى المجتمع ولا تؤذى الفرد .

سابعاً : الإسلام لا يعترف بما يسمى (الخطيئة الموروثة)
ولا يعرف التزام أحد بذنب أحد آخر ، « ولا تزر وازرة وزر
أخرى » ، بل أمانة ومسئولية فردية ، وهى بإقامة التكليف يعطى

الإنسان القدرة على أن يصل إلى أعلى درجات الإنسانية بالعمل
الصالح والإيمان معا .

ثامنا : ليست الحرية في الإسلام انطلاقا من القيود والضوابط
وفرق بين الكبت والضبط .

7 تاسعا : أعلن الإسلام التوازن بين روح الإنسان وجسده
حتى لا يقع في متناقضات تفسد حياته وفكره وتجعله عاجزاً
عن تحقيق إرادة وجوده كخليفة لله على الأرض .

عاشرا : إن الخطيئة في الإسلام ليست غولا يعطارد الناس
وليس خطيئة آدم سيفاً مصاتماً على كل البشر ولا تحتاج إلى فداء
ولا تطهير : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

حادى عشر : إن الأخلاق لا تنفصل في الإسلام عن العقيدة
فإذا انفصلت الأخلاق عن معينها الأصيل (العقيدة) لم تستطع
الصمود أو البقاء .

ثانى عشر : ربط الإسلام الاعتقاد بالجزاء فى الآخرة
بالاعتقاد بالله ، وجعل الإيمان بالبعث والجزاء جزءاً لا ينفصل
عن التوحيد .

ثالث عشر : عنى الإسلام بتكوين الخلقية فى الإنسان
وتكوين الضمير الدينى حتى يكون ذلك ضابطاً يحول دون أن يتجه



علم الإنسان وسيادته في الكون إلى الإفناء والتخريب بما يعصم العلم والسيادة والقوة عن أن تستخدم في غير صالح البشرية عامة .

رابع عشر : التوازن : من أبرز مقومات الإسلام التوازن بين مختلف القوى الإنسانية : بين الروح والجسد وبين الأشواق العليا ونزعات الغريزة ، وبين الخضوع لضرورات الحياة والتسامي إلى طلاقة الأفق الأعلى . يقع الإسلام في نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة وبين الكبت الذي تفرضه بعض النظم والعقائد ، والانطلاق الحيواني ، وبين الفردية المتطرفة وبين الجماعة التي تقضي على كيان الفرد ؛ بين المادية المخرقة التي تحدد الحياة بما يقع في محيط الحواس ، والروحانية المخرقة التي تهمل عالم المادة وتتعلق بالروحانيات والخيال .

(٦)

للفلسفة المادية نظرتها إلى الإنسان والإسلام نظرتة فأى
النظرتين أقرب إلى الأصالة والفطرة ، وأكثر إخلاصا للإنسان
نفسه وعملا لتحريره ؟ .

الإنسان فى الإسلام مخلوق لغاية فلم يخلق عبثا ولا سدى .
والفرق بين الإنسان والحيوان إنما يكمن فى العقل والقدرة X
على التفكير ، وذلك التكليف الذى أطلق عليه القرآن اسم
«الأمانة» فالإنسان خلق خالقا متميزا فى طبيعة تركيبه وفى وظيفته
وغاية وجوده ومآله ومصيره ، وأنه قد وضع موضع الامتحان
بالحياة والابتلاء بها والمحاسبة فى النهاية على سلوكه فيها ، هذا
السلوك الذى يقرر جزاءه ومصيره .

٢ وقد هدى الإنسان طريق الخير والشر، وكشفت له رسالات
السماء مفهوميها ، ونتائج السير فى كل منهما « وهديناه النجدين »
وقد كان الدين عامة والإسلام بوصفه خاتم الرسالات السماوية
دعوة إلى تحرير الإنسان من الشر ووضعه على طريق الله الحق .
وقد اعترف الإسلام للإنسان بكل دوافعه وغرائزه ومنها



الطاقة الجنسية ورغبات الطعام والملابس والزينة ولكنه حفظا
لشخصية الإنسان من الانهيار والتدمير ، وضع « ضوابط » ،
منظمة وكفل ذلك داخل نطاق الأسرة والزواج ، وعنى بتربية
الإرادة لتكون عاملا في كبح جماح النفس دون عنان الشهوات .
وقد أكد الإسلام ترابط الروح والجسد في الإنسان ودعا
إلى التوازن بينهما حتى لا يقع التناقض أو ما يسمونه في لغة
الفلسفة الحديثة : الرفض ، والمسلم لا يكون رافضا أبداً لأن
توازنه بين الماديات والروحيات ، وبين العقل والقلب ، وبين
الدنيا والآخرة يجعله منطلقاً إلى غايته في طريق وسط مأمون .
٦ ولن يحدث الاضطراب الذي يزعزع النفس الإنسانية
ويدفعها إلى الإحساس بالغثيان أو الضياع إلا إذا فقد الإنسان
عنصرًا من العناصر المتكاملين في داخله وأعماقه .
وفي الإنسان وفق مفهوم الإسلام عنصران :

عنصر ثابت لا يتغير مهما تغيرت الظروف ومهما تغيرت
حياته على الأرض لأنه يتصل بحقائق أزلية ثابتة لا يدركها التغير .
وفيه إلى جانب ذلك عنصر متغير أو صورة متغيرة من الجوهر
الثابت ، أو حالات متطورة للكيان الدائم ولكنها مع تغيرها
وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه الإنسان ولا تنفصل

لحظة واحدة عن كيانه الدائم بحكم وحدة النفس الإنسانية وترابطها
وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان .

* * *

وفي مفهوم الإسلام أن الإنسان قبضة من طين ونفخة من
روح الله ، وفي قبضة الطين تتمثل جميع عناصر الأرض المادية ،
وتتمثل فيها دوافع الأرض ، أما نفخة روح الله فتتمثل فيها الإرادة
القادرة على التعرف على الخير والشر ، وفيها جماع الرفعة والسمو
والتسامي والتطاع إلى الكمال ، ونفس وما سواها ، فألهمها
فجورها وتقواها ، قد أفاح من زكائها ، وقد خاب من دساها .
هذه هي العناصر الثابتة التي لا تتغير مهما تغيرت مظاهر
الحياة وإلى جانب ذلك صور متغيرة أو حالات متباينة ، وهي
في تغيرها وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه إنسانا .
ومن هنا فإن تركيب الإنسان الروحي المادي بطبيعته
يتطالع إلى خالقه ، ولا يستطيع أن يحيا دون عقيدة ودون دين .
وحين ينقد الإنسان العقيدة : فإنه يتقى ذلك الجانب المادي
وحده ، الذي يحوله إلى قسوة الوحش أو تفاهة الانحلال .
فالعقيدة هي التي تضبط هذا التركيب المادي وتنظم حركاته ،

تحول دون تبديد طاقته الحيوية في متاع الجسد .

وهنا يقع التناقض ، والرفض ، والتمزق النفسى .

والعقيدة هى القوة الرافعة التى تحول دون التصادم أو الاضطراب أو الانحراف عن الاتجاه الصحيح ، هذه العقيدة نيرة ذات بصيرة ، لا تحول دون الاستمتاع بالطيبات من الرزق ولا تحرم زينة الله التى أخرج لعباده ولا تمنع تقدم المجتمع أو تطور العلم ولكنها تكون بمثابة السياج المانع ، والإطار الحصين .

* * *

هذا هو مفهوم الإسلام للإنسان وهو أقرب إلى الفطرة من مفهوم الفلسفات المادية ، وأوسع منها أفقا ، وأكثر إيمانا بالنفس الإنسانية وحماية لها .

لقد اعتمدت الفلسفات المادية على مقررات العلم وحدها ، وهى مقررات لم تستطع بعد أن تصل إلى أعماق حقيقة الكائن البشرى ولذلك فقد أخطأت الحساب .

وشهد شاهد من أهلها على هذا القصور ، ذلك هو الدكتور (الكسيس كاريل) ، وهو عالم طبيعى وليس فيلسوفا .

يقول دكتور (كاريل) : إن أغلب الأسئلة التي ياقبها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة ، فنحن لا نعرف الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

● كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية ؟

● كيف تقرر (الجنيس) = تناقلات الوراثة ، الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟

● كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء فهي كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع ؟

● ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيلوجي ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور ، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا !

« إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية ، إلى أى مدى تؤثر الإرادة في الجسم .
كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟

على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقالية التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة فى القاعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية .

هذه هى التعقيدات التى يواجهها العلم فى تركيب الإنسان فكيف يستطيع أن يضع له فأسفة وهو لم يفهمه على حقيقته بعد !

* * *

٦- غير أن (كاريل) يدهش لمعجزة الخاق التى تحير الذهن البشرى،

يقول : إن الفردية جوهريّة فى الإنسان ، إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا وهى تجعل الذات حدثا فريدا فى تاريخ العالم ، إنها تطبع الجسم والشعور ، كما تطبع كل مركب فى الكل بطابعها الخاص وإن ظلت غير منظورة .

٦- تميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم وإشاراتهم وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقالية والأدبية الخاصة، ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة فى مظاهر الأفراد إلا أنه يمكن دائما معرفة كل فرد بواسطة إبقاء أجزاء معينة من هيكله وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع بميزات قاطعة للفرد ، ومن ثم فإن من بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان .



ومن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين البشر الذين استوطنوا هذه الأرض ، كان تركيبهما الكيماوى متماثلا ، وترتبط شخصيتهما بالأنسجة التى تدخل فى تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الآن ، ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل جذورها فى أعماق ذاتنا .

وتتبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة ، فهى موجودة فى العمليات الفسيولوجية كما هى موجودة فى التركيب الكيماوى للأخلاط والخلايا ، ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقة الخاصة مع أحداث العالم الخارجى ، مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد .

ويقول (كاريل) فى النهاية : إننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه ، فضلا عن أننا أكثر عجزا عن اكتشاف امكانياته .

وبمحل ذلك أن هناك ثلاث حقائق أساسية :

أن الإنسان كائن فريد فى هذا الكون ، وأنه كائن معقد أشد التعقيد ، وأن الإنسان يشتمل على دوال متفردة عددها عدد أفراده .

ولنا أن نتساءل : هل هذا الإنسان المعقد الذى لم يكتشفه

العلم بعد ويفهمه فهما صحيحا ، هل يستطيع أن يرسم لنفسه منهج حياته على النحو الذى يحقق له السلامة والخير ؟

الحق أن المنهج الصحيح هو المنهج الذى رسمه خالق الإنسان .
العلم بتكوينه وطاقاته ووظائفه ، والأسلوب الصحيح لمعالجة هذه النفس بما يحفظ له التوازن بين فرديته وجماعيته ، وبين روحه وجسمه ، وبين دنياه وآخرته .

وإذا كان الإسلام قد رسم منهج حياة الإنسان على أساس التوازن والتوسط بعيدا عن الإسراف فى اتجاه الروح أو اتجاه المادة فإن الدكتور (الكسيس كاريل) فى كتابه : « الإنسان ذلك المجهول » لم يجد إلا أن يردد هذا الذى رسمه منهج الدين يقول :
« علينا أن نقي أنفسنا شر الإسراف فى أى شىء وكل شىء ،
فإن الإسراف فى أى شىء يفضى إلى الانحلال ، وإن الإنسان يميل بطبعه إلى الإسراف فى شهواته كالخمر والأكل والسرعة وغيرها ، وعليه أن يروض نفسه على الاتزان وعدم الإسراف فى أى شىء حتى فى النوم ، إن رجل العصر إما مفرط فى النوم أو مسرف فى اليقظة ، وهذا ضار به وخير له أن يعود نفسه أن يظل يقظا حتى تدركه الرغبة فى النوم فينام » .

لقد حاولت الفلسفة المدنية أن تعتمد مناهج الحيوان لتطبيقها

على الإنسان ومع أن (الدارونية) الحديثة التي تؤمن بتطور (دارون)، فإنها لا تؤمن بحيوانية الإنسان ولا ماديته الكاملة. وإنما تؤمن بتفرد الإنسان يولوجيا وسيكولوجيا على النحو الذي أورده (جوليان هكس) في كتابه: «الإنسان في العالم الحديث».

ومع ذلك فإن النظرة إلى الإنسان كحيوان ما لبثت أن سيطرت وهي مناقضة للعقل والنظرة العلمية، وظلت تنمو في جو مريب حتى ظهرت منها النظرية (الفرويدية) التي أقامت قواعدها على أساس «حيوانية الإنسان»، وسيطرة غرائزه الحسية وحدها على كل تصرفاته، ومنها جاءت الوجودية متممة للحلقة التي أرادت الفلاسفة المادية بها أن تخرج الإنسان من إنسانيته، ومن عقائده ومن فطرته لتسليه إلى الانهيار والتدمير.

وقانون الفطرة، التي ركب بها الإنسان روحا ومادة لا يقر أن الحياة النفسية للإنسان تنبع من جانب واحد هو جانب الحيوان. ولا يصدق على أي منطق أو مفهوم علمي أن غرائز الإنسان هي التي تحكمه وتسيطر على كل نشاطه، وأن جانب الروح لا وجود له على الإطلاق.



والنفس الإنسانية لها نظرية في مفهوم الفاسفة المادية ولها نظرية في مفهوم الإسلام وقد قطع الفكر الإسلامي شوطا طويلا في مجال دراسة النفس مستمدا مفاهيمه الأساسية من القرآن الكريم. ويرمى مفهوم الفكر الإسلامي من معرفة النفس أن يكون سبيلا لأصلاحها أو إلى تهذيب الأخلاق الذي لا يتأتى إلا بمعرفة النفس وعيوبها حتى يتمكن من إصلاحها فليست معرفة النفس في الفكر الإسلامي هدفا مجردا في ذاته ولكنها وسيلة إلى مراقبة السلوك .

ويعد الإمام الغزالي ، هو مؤسس علم النفس الإسلامي ، وهو يفسر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية هي شهوة الطعام والجنس والمال والجاه . وأساس هذه الدوافع كلها عنده هي غريزة الطعام ، وعنده أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والخروج عن حد الاعتدال إلى التفريط والإفراط ، هو سبب الأمراض النفسية ، والعلاج هو التماس حد الاعتدال الواجب . فطابع الفكر الإسلامي . في السلوك هو الاعتدال ، ذلك الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والغاية من كل سلوك

هو معرفة الله ومراعاة ما أمر به في كتابه ليتهدى الناس إلى الصراط
المستقيم واتباع سبيل التقوى .

والغريزة الجنسية (عند الغزالي) ركبت لفائدتين : اللذة
وبقاء النسل ، واللذة ليست مطلوبة لذاتها أو لبقاء النسل بل لشيء
آخر أسمى وأرفع ، والشهوة عنده درجات ثلاث : إفراط
وتفريط واعتدال . فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همه
الرجل إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى فيحرم من سلوك الرجولة
أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش .

والتفريط في هذه الرغبة هو الضعف وهو مذموم والمحمود
أن تكون معتدلة ومتابقة للعقل والشرع .

ورسم الغزالي لعلاج آفة هذه الشهوة أموراً ثلاثة :
الجوع ، غض البصر والاشتغال بشيء يستولى على القلب .

* * *

ولا ترى النظرية الإسلامية رأى النظرية المادية من أن الجسم
هو الأصل ولا ترى أيضاً أن الروح هي الأصل كما ترى بعض
الفلسفات الروحية المسرفة ، ولكنها ترى أن هناك علاقة متبادلة
بين النفس والجسم ، ليست النفس هي التي تسيطر على الجسم
وليس الجسم ، بل هناك تفاعل بينهما وتوازن ، ذلك أن الإسلام
يأخذ الإنسان ككل : عقله وجسمه ونفسه وروحه فهو يوازن

بين مطالب جسده ومطالب روحه فهما جزءان من كيان متكامل، وبذلك يشجب الإسلام نظرة بعض المذاهب التي تركز على عقيدة الروح أو التي تتجه إلى مادية الجسد مع إهمال مطالب الروح . فوحدة الجسم والنفس في الإسلام أساس « حتى إنه يجعل العبادة عملاً ، والعمل عبادة ، ولا يفصل بين الماديات والروحيات ، ولا بين الأرض والسماء » والإنسان في نظر الإسلام متميز عن الحيوان ، ومن أجل ذلك ينبغى له « أن يحقق كيانه الإنساني المتميز ولا ينحرف إلى حياة الحيوان ومن الضروري لذلك ألا يخضع خضوعاً مطلقاً لدافع الغريزة .

* * *

وإذا كانت النظرية النفسية الفرويدية المادية ترى كراهية القيود التي تفرضها العقيدة على السلوك وتعدّها كوابت للنشاط الحيوي فإن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط البشري وإنما تسير الفطرة ومن مسaire الفطرة جاءت تكاليف العقيدة الإسلامية .

للإسلام في مجال الطاقة الجنسية وقضية الكبت موقف ورأى
يختلف اختلافا واضحا عن النظرية المادية .

فالإسلام أساسا يعترف بالغريزة الجنسية فهي طاقة بشرية
تحتاج إلى إشباع وهي تؤدي مهمة حيوية بإشباعها ، وهي مصدر
نتاج البشرية الذي لا يتوقف .
ولكن الإسلام يضع لهذه الطاقة الضوابط ويجريها في دائرة
النهج الطبيعي .

وتقوم النظرة الإسلامية على أساس استنكار الاستغراق
والإسراف لأنه يضمن أحد جوانب الإنسان على حساب بقية
الجوانب ويستنفد طاقة يمكن أن تنطلق في اتجاهات عدة .
ويكشف القرآن عن الشعوب التي انهارت واستغرقتها متعة الجنس
الناجزة والترف .

٦ ولقد أسرفت الفلسفة المادية في الحديث عن إطلاق الغرائز
وإباحتها ونددت بالكبت واعتبرته مصدرا من مصادر
الأمراض النفسية .

ولقد كان (فرويد) في نظره تلك واقعات تحت تأثير بعض المفاهيم الدينية المنحرفة التي كانت تعيشها أوروبا والتي كانت تدعو إلى كراهية الطاقة الجنسية والعلاقة بين الرجل والمرأة . وتحرص على الرهينة واعتزال الحياة .

أما بالنسبة للمسلمين فإن الأمر يختلف اختلافا كبيرا فقد اعترف الإسلام بالدوافع الفطرية ونظر إليها نظرة التقبل والإقرار على أنها واقع طبيعي لا اعتراض عليه في ذاته ، ولكنه وضع له الضوابط حتى لا ينساق الناس مع هذه الرغبات فلا يلبثوا أن يستعبدوا لها ويضعفوا عن مواجهة الحياة ونضالها .

وقد كان اعتراف الإسلام بها عاملا من عوامل انطلاقها دون تكبت في اللا شعور .

فالإسلام لا يحرم الرغبة ولكنه ينظمها ، والإسلام لا يقر الإسراف فيها كما لا يقر رفضها ، وهو يعمل على إقامة التوازن بما تنفي معه كافة الاضطرابات النفسية والعصبية التي تنشأ من المنع ومن الإسراف على السواء . والطريق الطبيعي للطاقة الجنسية هو « الزواج » وليس أى أمر آخر .

وهناك فارق واضح بين الكبت والضبط : فالكبت هو إنكار هذه الطبيعة البشرية أساسا والنظر إليها نظرة كراهية بينما الضبط

يجيء على أساس الاعتراف بها فهو يؤجلها أو يعليها ولكنه
لا يقتلها ولا ينكرها أو ينظر إليها على أنها من المحرمات .
وبذلك تختلف النظرة الإسلامية للجنس عن نظرة الفلسفة
المادية التي جاءت أساسا من منابعها ومصادرها في المجتمع الغربي
وكرر فعل لبعض المفاهيم الدينية المبتدعة والتي تختلف مع جوهر
الدين ومع جوهر الفطرة الإنسانية .

وقد رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقطع الرأى في ذلك
حين قال : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج) ،
والمسلمون (١) « أمروا بالعفة إذا عجزوا عن الزواج » ، « أما هناك
فالأصل هو العفة فإذا عجزوا تزوجوا ، ولذلك كانت الفلسفات
السابقة على الإسلام تحاول حصر هذا الزواج في أضيق نطاق وتحرمه
على القادة الروحيين أو تقلل فرصته بمنع زواج الأرملة والمطلقة .
ولذلك جاء الإسلام فأزال « الفكر المعادى للزواج الذي
ساد العالم المتدين قبل بعثته ، والذي كاد يهدد بفناء الجنس البشرى
أو قيام تناقض في ضمير المتدين بين قوانين الحياة التي يمارسها
فعلا ، وبين تعاليم الدين التي يجب عليه احترامها » .
والاتصال الجنسي في الإسلام له ثواب .

(١) من كتاب (.. في فكر منحل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في بضع أحدكم لأجرا»
قالو: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!
قال الرسول: (أرأيتم لو وضعها في حرام، كان عليه فيها وزر
فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).

* * *

7 «وتحريم الزنا في الإسلام لا ينبعث من كراهية الجنس بل
من احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ومن احترام المرأة وتنزيهها
عن أن تكون أداة لمتعة الرجل، وحتى لا ينسب الطفل لغير
لحظة الحب التي أنجبته، وإذا علمت أن الزنا لا يجوز إثباته
بالتجسس أو الشبهة وأن عقوبة الرجم لم تطبق في التاريخ الإسلامي
إلا على معترف أو معترفة، وأن هذا الزاني المعترف لو أنكر
بعد أن صابته الأحجار بل لو فر هاربا من الأحجار وقف
تنفيذ الحد».

وقد أشارت إلى أهمية هذا المعنى الدكتورة (سجريد
هونكه) في كتابها: (شمس الله تشرق على الغرب) حين قالت:
«إن تعبيرات احترام المرأة دخلت اللغات الأوروبية على
يد العرب» هذا فضلا عن أن الخطيئة في الإسلام من الأمور
التي تقطعها التوبة.

ولا شك أن هذا الضبط الإسلامى هو مصدر السكينة والتوازن الذى تتسم به الشخصية الإسلامية، بينما كانت هذه الدعوة إلى الانطلاق الجنى، والتحرر الاجتماعى هى التى فتحت باب القلق الدائم الذى لا ينتهى والاضطراب النفسى والعصبى الذى يؤدى إلى أمراض ضغط الدم والهستيريا والجنون والجريمة .

وليس مصدر ذلك (الكبت) كما قال (فرويد) بل هو (الإطلاق) وفى الإسلام لا مانع من التوازن والاعتدال بين المتاع المشروع وبين الاندفاع فى الأرض للعمل والتعمير والبناء ، بل إن النفس السوية تكون فى مجال العمل أكثر قوة من النفس المنحرفة المنهارة .

والإسلام يحدد مصارف الجنس ويحددها بالزواج ، وهو حين يدعو إلى التبكير فى الزواج إنما يخفف الضغط على الأعصاب إلى أقل مدى ممكن ويرى النفس من كثير من عوامل الاضطراب .

هذا وبالرغم من هذه الصيحات التى يصدرها (فرويد) مهدداً بالكبت فإن العلماء لا يرون ما يراه بل يرون أن الأمر أهون من ذلك كثيراً وهذا الدكتور (لويس بيش) الطبيب النفسى يقول: إن الدوافع الغريزية الجنسية دوافع غريزة تحاول أن تعبر عن نفسها ولكن هذا لا يعنى أبداً أن عدم الإشباع يؤدى إلى الدمار

إن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة ، وليس هناك ثمة ضرر جسمي أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس .
٢ إن الإثارة الجنسية إنما تجيء من العالم الخارجي ، وإن ما تتخيله عقولنا عن الجنس يكون أشد إثارة من الجنس في واقعه الموضوعي . ومن ثم نستطيع أن نقول إن الكتب الجنسية وأفلام السينما وما إلى ذلك هي المسئول الأول عن إثارة الحيوانية الكامنة في أعماقنا وليس الجنس في ذاته .
« وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذي لن يضر شيئاً » .

للحرية في الإسلام نظرية تختلف عن مفهوم الحرية
في الفلسفة المادية .

فقد ولد الناس جميعاً أحراراً وحریتهم في الحياة مطلقة
في كل شيء ، وتبقى مطلقة حتى تصطدم بالحق أو الخير فإذا
اصطدمت بالحق أو الخير سواء كان خير الفرد أو خير المجتمع
فإن الحرية الفردية تقف وتتقيد عند حدود الحق والخير .

وقد دعا الإسلام إلى التحرر من ربة التقاليد ودعا الناس
إلى التفكير بالدليل والبرهان .

ولا يتصور الإسلام الحرية انطلاقاً من الضوابط والنظم
الإنسانية والنفسية والاجتماعية لأن الحر لا يمكن أن
يكون منطلقاً .

ذلك أن الحرية لا تكون مطلقة أبداً لأنه لا شيء في الوجود
الإنساني يعد مطلقاً من كل قيد ولأن الحرية معنى اجتماعي
لا يتصور وجوده إلا في مجتمع يأخذ الأفراد منه ويعطون ، مادامت
الحرية معنى اجتماعياً فلا بد أن تكون لها ضوابط اجتماعية .

وحقيقة مفهوم الحرية : إنما هو تحرير الإنسان من العبودية ،
وأخطر المظاهر التي تستعبد الإنسان إنما هي الشهوات والأهواء ،
شهوات المال والذات والخلق والطعام .

والحرية هي أساس المسؤولية والجزاء ، ومن هنا كانت دعوة
الإسلام إلى تحرير الإنسان فلا يكون عبدا لهوى من الأهواء .
وتقوم الحرية بالنسبة إلى المعاني والأفكار على أساس التخلص
من عبودية المذاهب والأفكار التي لا تتفق مع التوحيد واختيار
الأصالح مما يفيد في ضوء القيم الأساسية لأمتنا وفكرنا .
وشرط الحرية ألا تنتهى إلى الفوضى التي تضر بمصلحة الفرد
والجماعة ، والحرية هي الانطلاق في حدود طاقة الإنسان .

الانطلاق في الرأي والاعتقاد في القول وفي الفعل .
ومن هنا يبدو الفارق بين مفهوم الفلسفة المادية ومفهوم
الإسلام فيبدو أن المادية هي التي تدعو إلى الحرية بمعنى الانطلاق ٤
وكسر كل الحواجز والقيود . بينما يبدو مفهوم الإسلام وهو
يدعو إلى إقامة الضوابط التي تحول دون الانطلاق المطاوع .
ولا شك أن الحرية بمفهوم الفلسفات المادية ليست من
مظاهر التقدم التي تستهدف رقي الإنسان ورعاية المجتمعات
وحمايتها من الأخطار ، نفهم أن المادية تدعو إلى الانطلاق
لأنها تنكر القيم والمثل والمبادئ ، وتؤمن بالفردية والأنانية

التي هي أخطر مظاهر الطفولة الإنسانية ، ونفهم أن الإسلام يدعو إلى الحد وعدم الانطلاق لأنها تدفع الإنسان نحو المستوى الإنساني الرفيع وهو مستوى الرشد وفي هذا المستوى يقر الرشيد بوجود غيره ويؤمن بالقيم والمبادئ التي تجعل منه ومن غيره وحدة في الترابط والانسجام .

والإقرار بالغير مع الإيمان بوجود الانسجام معه يجعل حرية الفرد في حدود مصلحة الغير ، فللفرد أن يرى ويعتقد ويقول ويفعل ويتصل بالغير ولكن لا على الإطلاق ، بل بما يصون حرمة الغير ويحفظ وجوده .

ومن هنا خطأ القول بأن الحرية بمعنى الانطلاق هي مظهر للتقدم والتطور ذلك أن تطور الإنسان وتقدمه الصحيح والتاريخي لا يقر هذا الانطلاق أما التقدم بمعنى العودة إلى حيوانية الإنسان وحدها فهو عودة إلى عهد الطفولة الإنسانية . الحد من الانطلاق هو التنظيم ، وليس الكبت من لوازم المجتمع وطبيعة كل مجتمع هي تنظيم علاقات أفراد بعضهم ببعض^(١) . ومن الواضح في ضوء هذا أن مفهوم الكبت في الإسلام يختلف عن مفهومه في الفلسفة المادية .

(١) الدكتور (محمد البهي) : الإسلام والفلسفات الحديثة .

والإسلام حين يعترف بالغرائز والطاقات والرغبات الحسية ،
ويعطيها حرية العمل مع تنظيم هذه الحرية وضبطها حماية للكيان
الإنسانى نفسه وحماية للمجتمع ، فهو لا يعرف الكبت بالصورة
التي عرقتها المجتمعات والمفاهيم الدينية التي وضعت هذه النظرية
تحت ظلالها الكثيفة وفي مواجهة تحدياتها ، والأسلوب الذى
تدعو إليه النظرية المادية فى مواجهة ذلك هو إطلاق النفوس
إطلاقا كاملا ومنح الغرائز حرية مطلقة وذلك مالا تقره الفطرة
الإنسانية ، فالغريزة الجنسية حقيقة لا يمكن تجاهلها والحل الإيجابى
لها هو الزواج ، فإذا لم يتيسر فهناك التسامى بالغريزة يمنع صنوف
المثيرات التى تعترض الشباب وتستفز الشهوات ، وقد أقرت
المذاهب النفسية المعتدلة : أنه يمكن تغيير مجرى الغريزة فى نزوعها
الآخر إما بالتسامى أو بالتعديل أو بالكبت (التسامى هو ربط
الغرائز بمثل عليها تتأثر بها وحدها) و (التعديل هو إشباع
الغريزة بمظهر فيه العوض عن حاجتها الأصلية) .
أما الكبت فى ضوء الاعتراف بالغريزة وطبيعتها ، فهو عنصر
ضرورى فى كل تربية سليمة وليس هناك نظرية أصيلة فى التربية
والأخلاق والنفس تقول بأن النفس تجاب إلى كل ما تشتهى .
وتصوير الكبت على أنه خطر على هذا النحو الذى صورته الفلسفة

المادية هو كذب ومبالغة وقد رده كثير من العلماء في نفس الحقل، وهو دسيسة يغرى بها الشباب على الانفلات مع الأهواء الجامحة وبذلك تتحطم هذه الأجيال وتنشأ واهنة العزم فلا يستطيع حمل أمانة مقاومة الغزو الذي يشنه العدو على الأمة العربية والعالم الإسلامي كله .

إن محاولة الغزو الغربي الاستعماري فرض مثل هذه النظريات المادية وإطلاق اسم العلم عليها إنما هو هدف خطير يحاول أن يمهّد في نفوس الشباب تقبل مظاهر الانحلال التي ترسمها المجتمعات من خلال الأزياء والأفلام السينمائية لتهديم القيم وقتل الغرائز .



الفنية السادسة

الإسلام والأخلاق

(١)

ما تزال حملات الغزو الثقافي توجه حملاتها إلى مفهوم الأخلاق في الإسلام دافعة إلى الثقافة العربية بموج زاحر من النظريات والمذاهب الفلسفية التي تتنكر لمفهوم الأخلاق وتهاجمه في عنف ، بينما تحاول أن تفرض مفهوما لا يتسق مع الطبيعة الإنسانية ولا مع الفطرة ولا يلتقى بالنفس العربية المسلمة في مقوماتها الذاتية وتركيبها المعنوي ومزاجها الاجتماعي .

فالأخلاق في مفهوم الإسلام قاسم مشترك على المجتمع والقانون والسياسة والاقتصاد والأدب والتربية لا سبيل إلى عزله عن هذه المقومات ، فقد جعل الإسلام هذه القيم جميعا أخلاقية المصدر والدافع والهدف .

وهو مفهوم يوفق أساسا بين الاعتقاد بالله وبخلود النفس والجزاء في الدار الآخرة ، والإيمان بالمسئولية الفردية والجزاء

الأخروي ركيزة أساسية في الأخلاق الإسلامية ومحاولة فرض
نظرية تجعل الحياة الدنيا هي آخر المطاف إنما هي دعوة مدمرة
تفتح كل أبواب الإباحة والشر والخروج عن جميع الضوابط
والكوابح ، وبدافع الإحساس بأنه ليس هناك للعمل محاسبة
وجزاء ، فإذا كانت الدنيا هي النهاية إذن فلماذا لا يحب الإنسان
منها عبا دون تقدير لأي مسؤولية أو حساب ، ومن هنا فإن
التأكيد الذي وضعه الإسلام على حقيقة البعث والجزاء بعد
الموت ، هو تأكيد جازم وهو أمر طبيعي يتسق مع مفهوم
الدين ووجود الإنسان على الأرض ، وإلا فأى حكمة في وجود
الإنسان على الأرض إذا لم يكن له مسؤولية في سلوكه وتصرفه
وعليه حسابا يؤديه إزاء ذلك كله وجزاء سرمداً في حياة أخرى
بعد هذه الحياة .

كانت الأخلاق قبل الإسلام تقوم على كبح الغرائز وكان
الزهد قد ظهر في بعض الدعوات والعقائد وانتهى إلى الرهينة
واعترال الحياة ، وكان يأمر بقمع الغرائز والشهوات فلما جاء
الإسلام أعاد المفهوم الصحيح للدين السماوي في الأخلاق
وهو « ضبط » الغرائز وتركيزها وترويضها وتصعيدها
والسموبها .

٢ وفكرة تصعيد الغرائز الحديثة مستفادة أولاً من القرآن الكريم
« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح
من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

وفي الإسلام يتميز الفرق بين التقوى والرهبة : فالتقوى
مشاركة في العمل مع يقظة ضمير تحول دون الرذيلة : « اجتناب
الحرام » ، أما الرهبة فهي اعتزال كامل للمجتمع ، والإسلام
لا يؤمن بالانفصال عن المجتمع ولا بالعزلة عنه وينهى عن
التقشف والرهبة نهياً تاماً .

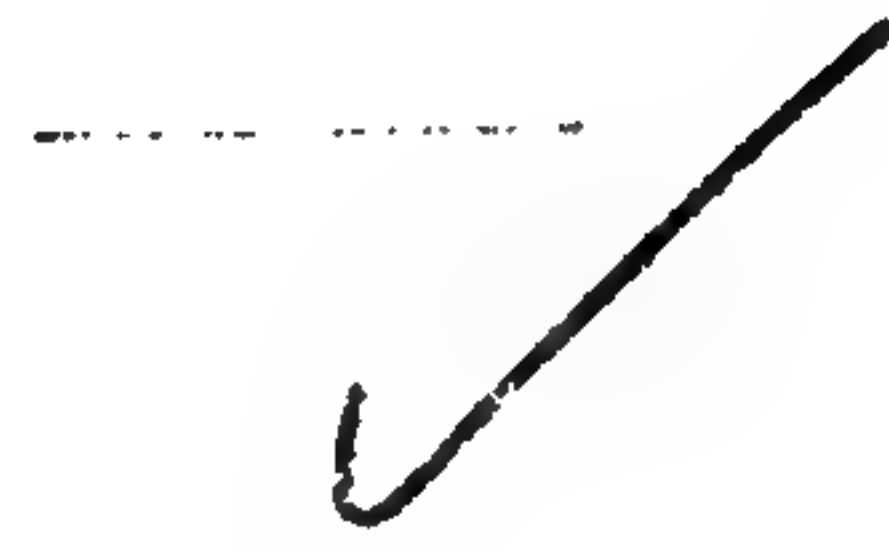
والانطلاق وراء الشهوات ليس هو مفهوم الحرية وإنما
ذلك هو العبودية الذليلة للغرائز ولكن الحرية هي القدرة على
امتلاك الإرادة ودون اعتداء ما على حرية الآخرين . وضوابط
التصرفات التي يقرها الإسلام تضمن كرامة الجماعة وتنظم حرية
الأفراد وتعلى حرية المجتمع على حرية الفرد ، وهي تصطنع
الحكمة في منع المريض الذي يضره الطعام وتمثل في أن الإنسان
لا يعيش وحده وإنما يعيش كجزء من المجتمع .

٣ والأخلاق في الإسلام ليست « مثالية » بل واقعية عملية ،
تستمد قيمها من صميم واقع الإنسان بحسبانه أحد أفراد المجتمع .
وهي تظهر في مستويين : فردي واجتماعي .

وفي مجموعها تؤكد حرية الإنسان وإرادته في الاختيار
وتحمل المسؤولية فالفرد مسئول عن عمله ، واع لشخصيته ، محقق
النفع العام للمجتمع بأسره .

والأخلاق في الإسلام ترتبط بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً ، وتمثل
القاسم المشترك لكل روافده من سياسة واقتصاد وأدب
وعلم وتربية .

وقد جمع الإسلام بين السلوك والخلق في مختلف المجالات
وبين الدنيا والآخرة ، ومقياسها هو التقوى والعمل بها .
التقوى بمعنى الاتقاء والترك للانحراف في الاعتقاد والسلوك ،
والعمل بمعنى الحركة والإضافة .



(٢)

يختلف مفهوم الأخلاق في الإسلام عن مفهومه في الفلسفة
المادية التي تستمد جذورها من الوثنية اليونانية اختلافا جذريا
ويتمثل هذا الاختلاف في عدة جوانب :

أولا : إيجابية الأخلاق في المفهوم الإسلامى .

ثانيا : شموله بالنسبة للناس جميعا .

ثالثا : وسطيته بعيدا عن الانحراف والجمود .

رابعا : قدرته على التباور وفق حاجات المجتمعات والعصور .

خامسا : الأخلاق الإسلامية أخلاق اجتماعية لا فردية .

فالقُرآن ينظر إلى الفرد في ضوء مصلحة المجتمع فإذا تضاربت
مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ويضحى
بنفسه في سبيله .

وفي الفلسفة اليونانية يتمثل هدف الأخلاق في السعادة
« أخلاق سعادة » أما في الأخلاق الإسلامية فيتمثل في التقوى
« أخلاق تقوى » تقوم على الإيثار وتجنب الحرام والإقبال
على الحلال .

والإسلام لم ينه عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها
أو الزهد فيها ولم يحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق
بل جعلها خالصة . وتتمثل الأخلاق الإسلامية أبرز ما تتمثل في :
« التطبيق النبوى » الواضح في شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ وقد نظر المسلمون إلى الأخلاق على أنها منهاج عملى غايته
التعاون فى الحياة واحترام القيم الإنسانية وحسن المعاملة ، بينما
نظرت الفلسفة اليونانية إلى الأخلاق على أنها جانب نظرى
من النشاط العقلى خاضع للجدل والنقاش .

وقد رسم الإسلام للأخلاق منهاجا واسعا مرنا يسير
التطبيق فى مختلف العصور والبيئات ، وجعل إطار القيم الأخلاقية
واسعا رحبا ، يحقق الحرية الشخصية ويتقبل الجهود الفردية .
أما الضوابط التى أقرها كقواعد أخلاقية فقد أقام بها حواجز
متينة ضد الظلم والشر والفوضى .

وقد أتاحت هذه الضوابط مع رحابة الإطار للعصور المختلفة
القدرة على الحركة والتشكل واختيار الصور والأوضاع التى توفق
بين القيم القرآنية الأساسية للأخلاق ، وبين التجارب والأحداث
التي يقدمها تطور المجتمع . وذلك مما يحقق التقدم والحركة فى جو

من الحرية الفكرية مع التعبير عنها بما يلائم العصر ، دون تحفظ
للضوابط ودون خروج على إطار الإسلام ومبادئه الأخلاقية العامة.
والأخلاق الإسلامية في مجموعها تنبذ الميكافيلية وتؤمن بأن
الغاية الشريفة لا يجوز أبداً أن يسلك إليها بوسائل غير شريفة .
والأخلاق الإسلامية كقوة إنسانية تسمو وتتسامى فوق
كل مذهب فلسفي سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي مهما كانت
شعاراته .

* * *

وقد رسم الفكر الإسلامي للعاطفة مفهومًا قوامه الحركة
4 في نطاق الأخلاق، وقد رسم القرآن صورة العفة في قصة يوسف ،
ووقف موقفًا صريحًا صارمًا من علاقة الرجل والمرأة من حيث
العفة، وحذر من العلاقات غير المشروعة وأوجب على مرتكبيها أقصى
الحدود، وحجب في الزواج ويسر أسبابه قال تعالى «قد أفلح المؤمنون..
والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم
فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ،
وقال : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم
ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن
من أبصارهن ويحفظن فروجهن » .

* * *

وقد واجه مفهوم الأخلاق في النظرية الإسلامية تحدياً خطيراً من الفلسفات المادية الغربية وذلك بعد تطور مفاهيم الفلسفة وظهور نظريات (ميكافيلي ودارون وفرويد وماركس ودوركايم) وفلسفات (نيتشه) ونزعات السريالية والوجودية .

والحق أن مصادر الأخلاق كانت دائماً مرتبطة بالعقيدة ، وقد كانت الدعوة المادية تحاول أن تقيم مفهوماً للأخلاق منفصلاً عن العقيدة .

وكانت نظرية (ميكافيلي) في فصل السياسة عن الأخلاق مقدمة لفصل الاقتصاد عن الأخلاق وكذلك فصل الاجتماع عن الأخلاق ثم فصل الدين عن الأخلاق وكذلك فصلها عن الأدب والفن . وأخطر ما واجه مفهوم الأخلاق من تحديات هو « تحدى الالتزام » ، ووجه الخلاف بين الأخلاق في الإسلام ومفهومها في الفلسفة المادية واسع المدى ، بعيد متباين فالأخلاق المادية تقوم على أساس مستمد من التراث اليوناني والروماني ومن هنا كانت أبرز مظاهره انقساماً لا حد له بين نظرتين :

١ - نظرة تقول بالصراع بين البشر وبين الله . والخصومة بين الآلهة عندهم وبين الناس ، فالآلهة تنتقم من الناس في وحشية وعنف لتنفرد وحدها بالقوة ، ومن هنا كان ذلك الصراع والتحدى لله وتوهم التغلب عليه بالسيطرة والإغراق في المتعة والحس .



وقد اتصل هذا المعنى الإغريق بالفكر الرومانى الذى يقيم فلسفته على أساس أن أهل روما هم السادة ، والناس جميعا خارجها عبيد ، ومن ثم علا مذهب المتعة ، وينتقل الإنسان من نعيم إلى نعيم وساد الفساد والانحطاط وقام كل شىء على أساس القوة وعبادة القوة اعتقادا بأنه بها وحدها ينال الإنسان الثروة ، وكانت الفكرة المسيطرة هى استغلال الأمم لمصلحة روما .

٢ - ونظرة تقول بالرهبانية القائمة على تعذيب الجسم بحسبان أن ذلك يشكل مثالا كاملا فى الدين والأخلاق ومن هنا كان الاحتباس فى الأديرة ، وإلغاء الزواج ، وغيره مما هو مضاد للفطرة الإنسانية وتقييد للطبيعة ، وقد كان لذلك رد فعل عنيف فى انفجار حركة الإباحة المادية العاتية .

* * *

وقد ورثت الحضارة الغربية هاتين النزعتين وتطورتا حتى جاء عصر النهضة فأعلى من قدر (الطبيعة) ثم دعا إلى عبادتها ثم أعلى من قدر « الإنسان » فأصبح معبودا ثم ظهرت نظريات (دارون وماركس وفرويد) وكلها تحاول أن تفرد الجانب المادى بالأهمية أو بالأحرى الجانب الحيوانى فى الإنسان بالحياة وتنكر جانبه الروحى .

ومن هنا تحول مفهوم الأخلاق عن مصادره وزاد فى اضطرابه

ما دعا إليه ميكافيلي من السلطة الأوتقراطية كوسيلة لترويض الإنسان الذى وصفه بأنه مطبوع على الشر وأنه أقرب إلى الحيوانات منه إلى الملائكة . كما دعا إلى أن الغاية تبرر الوسيلة ثم جاء (فرويد) فدعا إلى إطلاق الغرائز الحسية إطلاقا كاملا . ثم أعلن (دوركايم) أن نظام الأسرة والجماعة ليس نظاما فطريا ، ثم جاء القول بأن الأخلاق خاضعة للظروف المعيشية ، لكل مجتمع ، وهكذا حاولت الفلاسفة المادية الغربية أن تجرد الأخلاق من قوة الإلزام ، والواجب والضمير الخالق .
بينما لا يمكن أن توجد الأخلاق كقوة فاعلة في المجتمع دون قوة الإلزام ، إيماننا بأن الإلزام هو العنصر الأساسى أو المحور الذى تدور حوله المشكلة الأخلاقية (١) .

إن زوال فكرة (الإلزام) يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف إليها الأخلاق ، فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسؤولية ، وإذا عدمت المسؤولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه ، وإقامة أسس العدالة .

ومفهوم (الإلزام) يقتضى أن تكون الفضيلة قوة كامنة إذا ملأت

س (١) يتصرف عن بحث للدكتور (محمد عبد الله دراز) .

نفس المرء حفزته إلى العمل النافع وإلى النشاط المستمر ، حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية في النفس إلى قوة حسية ، ويكون « الخير الأخلاقي » بمثابة سلطة ملازمة يتقيد بها الجميع .

وقد دعا الإسلام إلى الإلزام الخاقي ، وكشف عن أن النفس الإنسانية عرفت منذ تكوينها الأول معنى الخير والشر : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

وقد ألهمت النفس « الحدس الخاقي » فعرفت طريق الفضيلة والرديلة « وهديناه النجدين » وقد تنحرف الطبيعة الإنسانية نحو الشر ولكن الإنسان قادر على أن يردّها ويستعيد سيطرته على قيادها ، وفي النفس قوة كامنة تهيج النصيح ، وتحدد للإنسان ما يجب عمله وما يجب تحاشيه .

هذه السلطة التي تسيطر على قدراتنا ، وعلى غرائزنا هي أسمى جزء من نفوسنا وهي « العقل » وساطة العقل هي السلطة الشرعية الوحيدة ، وخارج ما يأمر به العقل لا تكون هناك قاعدة أو سلوك له ما يبرره .

والنفس الإنسانية في تقدير « القرآن » ليست شريرة في أصلها ولا يفسد الإنسان إلا عدم استخدام القوى والمواهب التي أودعها الله في نفسه « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين

لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام
بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون .

والأمر في (الإلزام) الخلق متوقف على مدى استخدامنا
للقوى العليا التي أودعها الله إيانا ، وتنمية هذه القوى وتزكيتها
« قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »

كما عني القرآن كذلك يابقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل
هذه المشاعر تحت رقابة العقل ، والقرآن يدعونا دائما إلى أن
نزن الأمور بميزانها الصحيح ، قبل أن نحكم على قيمتها .

كما يشير (القرآن) مشاعر الأخوة والاحترام والكرامة
الإنسانية ، وقد احتاط القرآن للإلزام احتياطا شديدا ، فقرر
أن الإلزام عن الرسول لا يكون إلزاماً حقيقياً إلا إذا كان
مصدره الوحي .

« استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم »
« وفي هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بشيء
من رأيي فإنما أنا بشر ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فخذوا عني
فإني لا أكذب على الله » .

وقد يختلف رأيه عليه الصلاة والسلام في تقدير أشياء الحياة
المادية « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وقوله : « إذا نسيت فذكروني » .



أثارت الفلسفة المادية الغربية قضية هامة ، أخذت صورة « المعضلة » قوامها تطور الأخلاق بالنسبة لعامل الزمن أولعامل المكان ، وتنوع الطبيعة واختلاف ظروف الحياة من ناحية أخرى مما دعا كثيرا من الفلاسفة الأخلاقيين الغربيين إلى الدعوة للتحرر من المبادئ الهامة والمثل العليا وتركيز الجهود على اللحظات الحاضرة وكان ذلك مما دعا الغيورين إلى التوفيق بين مثال عال للأخلاق وبين الحقيقة الواقعة التي يعيشها الناس ، بحيث يمكن أن يتحقق للفعل الأخلاقي « الثبات » الذي يتسم به كل قانون عام مع التنوع الذي يلائم ظروف الحياة .

والواقع أن القرآن قد تنبه لهذا الملاحظ منذ أربعة عشر قرنا ووضع حلا لهذه المعضلة ، فقد أقام الالتزام الخلقى على قاعدة قوامها مراعاة الاستطاعة وذلك فى قوله تعالى :

« فاتقوا الله ما استطعتم »

ويقوم هذا النص القرآنى على أساس مفهوم « العمل الأحسن حسب وحي الساعة » وبهذا يتحقق « التوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الواقع ، ويجمع بين الاتجاهين : لا تحديد صارم ولا ترك كامل » .

٦ . ووفق مفهوم القرآن فإن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم X
بأفعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة ملحة لا يحصى عنها
وفي نفس الوقت فإن الله سبحانه يصفح عن خطأ من أخطأ بغير
تعمد: «وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم»،
وعلى المؤمن في حال الشك أن يتبين في إخلاص ما يتفق مع
أوامر الله، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب، فإذا اشتبهت
عليه الأمور فعليه أن يتق الشبهات: «ولا تقف ما ليس لك به علم»
٦ وقد أوضح الرسول هذا المعنى في قوله:

«الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتهيات، فمن اتقى
الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» .
وقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق
طمأنينة والكذب ريبة» .

وفي الترجيح بين الشر والخير، قول الرسول: «استفت
قلبك، في أيهما البر وأيهما الإثم، على نحو واضح، والبر
ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القاب، والإثم ما حاك
في النفس وتردد في الصدر» .

* * *

وقوام موقف القرآن من الالتزام الخلقى يتمثل في أمرين:

أولا : دعوته إلى اتباع القواعد العامة التي أمر الله بها مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء في نطاق التفاصيل التي تعرض تبعا لتغير ظروف الحياة .

ثانيا : لا يدعى القانون الأخلاقى فى القرآن : أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ، أو أن هناك طريقة واحدة لتطبيقها ، أو أن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينها ، وبين القواعد الأخرى ، فإن القاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام فإنها تترك أحيانا بعض التفاصيل دون تحديد .

وهنا يظهر مجال « الاجتهاد » الشخصى والتفكير الحر المستقل ، والاعتماد على ملكة العقل التي أودعها الله الناس . والمجهود الفردى واجب فى نطاق الإخلاص ، وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو إليه .

ومن مضمون هذه النظرة إلى « الالتزام الخاقى » فى مفهوم الإسلام ، نجد حلا جذريا للعضلة التي أثارها الفلاسفة الغرييون ، قوامها وسطية الإسلام وتكامله وقدرته على الحركة دون أن ينجح إلى الجمود ، أو التعصب ، أو الانحراف .

والأخلاق فى مفهوم الفلسفة المادية إما فردية أو جماعية ، بينما هى فى مفهوم الإسلام توفيق وتجمع بين الفردية والجماعية



في وسطية وتكامل ، فالفرد الممتاز هو نتاج الجماعة ، والجماعة تتقدم في طريق النهضة بالممتازين من أبنائها .

٦ وقوام الأخلاق في الإسلام : « الحرية والاختيار ، فلا أخلاق بلا حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار ، والإرادة حركة داخلية نفسية صرفة ، لذلك يقرر الإسلام أن المكروه إذا فعل ما يكره عليه ، كان له عذره ، وقد سمي الإسلام (حرية الإرادة) : الكسب والاختيار وجعلهما مناط التكليف ومدار العمل الخلقى .

ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقى متصفا بالطوعية والانبعاث من أعماق النفس حتى يكون صادراً عن إرادة طيبة في حب الخير والحق والفضيلة (١) .

(١) بتصرف عن نص للدكتور (إبراهيم سلامة) .



ذاعت نظرية دخيلة إلى الفكر العربى الإسلامى تقول :
 « إن الأمة ليست بحاجة إلى الدين ولكنها بحاجة إلى الأخلاق
 التى هى وحدها ترفع الأمة إلى مستوى الأمم الراقية
 وليس الدين » .

وتلك نظرية خطيرة فى مفهوم الإسلام الذى يقوم على أساس
 التكامل بين القيم دون الفصل بينها ، فليس هناك أخلاق منفصلة
 عن العقيدة على أساس أن المسئولية الأخلاقية هى مسئولية جزاء
 والجزاء جزء من الدين ، فلو استقر فى النفس أنه ليس هناك دين
 يقرر البعث فمعنى هذا أن ليس هناك جزاء ، وهناك لا تكون
 للأخلاق قيمتها الحقيقية المندفعة من أعماق النفس ، وقد أجمع
 كثير من الباحثين على أن « العالم » فى العصر الحديث قد تضخم
 عقله وضعفت روحه وتأكد أن الأخلاق لم ترتق ارتقاء مناسباً
 مع تقدم العلوم ، وأن العلوم قد تقدمت خلال القرون الأخيرة
 فى جميع الميادين بلا استثناء ، فى حين أن الأخلاق إذا كانت
 قد ارتقت فى بعض الميادين فإنها انحطت انحطاطاً صريحاً فى ميادين

أخرى ، والواقع أن تقدم العلوم لم يتضمن تقدم الأخلاق بل على العكس من ذلك فقد صاحب تقدم العلوم جمود في الأخلاق عن التقدم ، فإن اغترار الإنسان بقدرته التي لا حد لها على الكشف والاختراع ، قد نزع عنه عقيدة الدين أساسا ، ثم كانت انطلاقة الغرائز واللذات عاملا مؤثرا على فكرة «الالتزام الخلقى» وغلبة مذهب المنفعة والأنانية ، بالإضافة إلى عزل الأخلاق والدين عن مجال التربية والتعليم في الغرب ، كل هذا قد أدى إلى انعزالية الأخلاق .

وفي هذا يقول « جود » : أستاذ الفلسفة الإنجليزية في كتابه : (سخافات المدنية الحديثة) : « إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق ، ومنذ النهضة ظل العلم في ارتقاء ، والأخلاق في انحطاط . وقد غلب على الفكر العربى طابع التحرر المطلق ، في مجال المجتمع والمرأة والفن، وظهرت الدعوة إلى غلبة الجمالين على الأخلاقيين، وطغيان فكرة الفن للفن، ولا شك أن هذه الحركة كانت رد فعل أكيد لمفاهيم المسيحية الغربية في الأخلاق ، هذه المفاهيم التي قامت على أساس الحرمان والرهبة وتعذيب الأجساد بما يعوق

الفطرة ، مما خلف انفجارا طاغيا في الدعوة إلى « التحرر » ،
فالتحلل وظهور مذاهب تجدد الدعوة إلى الإباحة الأخلاقية
(الأييقورية القديمة) بحسبان أن اللذة الجسمية هي الغرض الأسمى
من الحياة ، وأن العقل والتفكير هو أكبر معول في هدم
الإنسانية .

وكذلك كان ذيق نظرية (فرويد) في السلوك الجنسي
وظهور الوجودية بمثابة رد على تحدى الحربين العالميتين الأولى
والثانية ، وكل المذاهب الفلسفية تظهر في مواجهة تحديات ، وهي
تحديات متموجة ، فالنزعة الأبيقورية تظهر في مواجهة النزعة
الرواقية ، والإلحاد يظهر في مواجهة الجود ، والتحلل يظهر
في مواجهة الرهبانية ، والزهد يظهر في مواجهة الترف .

ويرى الباحثون أنه لا توجد نظرية طبيعية تظهر من فراغ ،
وقد حاولت هذه المذاهب إطلاق حرية الإنسان إطلاقا كاملا ،
والسخرية من (الالتزام الخلقى) بحسبان أن المجتمع عدو للإنسان
وقد قامت على أساس القلق والضياغ والعدم ، وكلها نظرات
وفاسفات مرتبطة بواقع المجتمع الأوربي وظروفه بعد الحربين
العالميتين .

* * *



وفي قضية «الدين والضمير»: يقول الأستاذ (عبد المنعم خلاف):
شاعت في هذا العصر خاعة الدعوة إلى الاستغناء عن
الاديان ذات العقائد المرتبطة بالكون وخالقه والإنسان ووضعه
ومصيره وذات الرسوم والشعائر والعبادات . اكتفاء بالضمير
الإنساني الوازع إلى فعل الخير والبر وحسن المعاملة والتماسك
أمام الشهوات .

وفي رأى أصحاب هذه الدعوة أنها جديرة إذا اعتنقت أن تمحو
كثيرا من أسباب الخلاف والنزاع والحروب التي تنشب بين
الناس بسبب اختلاف العقائد والأفكار حول الكون والخالق
والنبوة والرسالة وتفسير الحياة والموت . وبيان وضع النفس
ومصيرها في الكون .

وقد ذهب أصحاب هذه الدعوة قدماء ومحدثين إلى أن الصفوة
المتنازة من ذوى العقول والجهلاء والدهماء ومن يليهم السعى
لسد حاجات عيشهم المادى فى أدوار حياتهم إلى نهايتها عن
التفكير فى مسائل العقائد الدينية ، كما ذهبوا إلى القول بأن
الفضيلة ثوابها وقيمتها فى ذاتها لا فى جزائها الذى تعد به الأديان،
وأن فعل الخير وترك الشر لا يفيد تهديبا ولا فضيلة وأن الاعتقاد
فى هذه الرغبات من الخير ومن الزواجر عن الشر ،



ليس خرافة ووهما ضارا فقط ، بل هو مفسدة للعقول ، وخاصة عقول الأطفال .

ورأى القرآن قاطع في أصحاب الفضائل والأعمال النافعة ممن لا يؤمنون بالله وحده ، فقد قضى أن من يخرج على ذلك تهدر قيمة فضائله الذاتية وأعماله الخيرة .

ويجب التفرقة بين وظيفة العقل ووظيفة الضمير ، ومجالات كل منها ، فالضمير حساسية بالخير والشر ، والمعروف والمنكر وهو الذى وضع قائمة الأخلاق والفضائل لحل مشكلة التعايش بين الناس هنا فى الدنيا ، أما العقل فجعله البحث عن الأسباب والأسرار لحل مشكلات الفكر والاعتقاد .

٦ ومن هنا يثبت القصور والعجز لدى المذاهب المادية الإلحادية المعاصرة التى تحاول حبس التطلع العقلى الإنسانى فى البحث عن حلول لمشكلة العيش وحدها بدون نظر لما وراء العيش المادى الموقوت المحدود من مسائل عقلية حول الكون وما وراءه ، وعلاقة الإنسان به ومبدأ كل منهما ومصيره .

٧ نعم ؛ إن حياة الضمير الوازع إلى الخير، والزاجر عن الشر، هى خلاصة حياة التدين العملى، وهى التى تعنى المجتمع ، ولكنها ليست كل شئ فى حياة التدين على إطلاقه ، بل ليست أهم شئ.

والواقع أن الإسلام في مفاهيمه الأساسية يستطيع أن يتحامي هذه الأخطار فلا يواجهها بمثل ما واجهها به الفكر الغربي .

وأن تظل الشخصية الإنسانية سليمة من عوامل الاضطراب والقلق والضياع والتفسيخ ومن عوامل قدرتها على الصمود أمام الأخطار أنها تتحرك في نطاق فكر موحد . طابعه الوسطية والتكامل ومن شأن الأخلاق فيه أن يمثل جزءا لا ينفصل ، وأن الالتزام الأخلاقي قائم على أساس الحرية .

وبالجملة فقد ربط الإسلام :

أولا : بين الأخلاق والدين ، وميز بين الآداب بحسبانها (السلوك الاجتماعي والكياسة) وبين الأخلاق (أعمال الإنسان المنبعثة من نفسه بعد روية وإرادة) .

ثانيا : الأخلاق معرفة وعمل ، والعقل يستطيع أن يحكم فيما هو خير وشر .

ثالثا : تبنى الأخلاق على الاعتدال والتوسط ، ولا بد من الجمع بين فضيلة العلم والعمل ، والأخلاق الحميدة مبنية على الإرادة والروية لا على الشهوة والانفعال النفسي .

رابعا : المبادئ الأخلاقية في الإسلام لم تكن مجرد

وعظية نظرية بل مبادئ إيجابية حكمية نبتت من الواقع والتحليل
العلمي للسلوك الإنساني ولم تكن تستهدف تكوين عادة الخير
فقط بل خلق وازع داخلي ومقاومة دافع الشر .

خامسا : أساس الأخلاق في الإسلام : الالتزام - والالتزام
الخالق في القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة (فائقوا
الله ما استطعتم) .

وبذا عادل الإسلام ووازن بين الاتجاهين :

« الانطلاق والانضباط ،

ويتصل بهذا مفهوم الفكر الإسلامي كله :

المؤمن لا يعمل عملا مشروعا إلا أمام ضرورة ملحة .
والله يصفح عن الخطأ غير المتعمد .

« وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت
قلوبكم » .

وفي هذا المجال يدعو مفهوم الأخلاق إلى اتقاء الشبهات
« ولا تقف ما ليس لك به علم » .

(والحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات ، فمن اتقى
الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) .



« دع ما يريك إلى ما لا يريك فإن الصدق طمأنينة
والكذب ريبة » .

ويرسم الرسول صلى الله عليه وسلم مفهوم الخير والشر :
« استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك
في الصدر وتردد في النفس » .

وهكذا يحتضن الإسلام مفهوما مرنا وسطا قائما على
الالتزام الخلقى :

« اتباع القواعد العامة مع ترك حرية التصرف والاختيار
للبرء في نظام التفاصيل تبعا لتغير الظروف ، ولكن لها جانب
من المرونة في الاختيار والتصرف ومنها مجال الاجتهاد الشخصي
والاعتماد على العقل » .



الفنية السابعة

الإسلام والأدب

(١)

من أهم الشبهات التي تثار ، ما يتصل بحرية الأدب وإطلاقه من قيود الأخلاق وقد عرض لهذا كثير من الباحثين ، منهم الدكتور (محمد محمد حسين) الذي يقول في هذا الصدد :

إن أكثر ما يذاع من هذا (الأدب الهدام) إن جاز لنا أن نسميه أدبا يتستر تحت اسم مذاهب فنية أو دراسات علمية فباسم الروماتيكية والوجودية كتبت ألوان من الأدب - شعره ونثره - يطبعها طابع الأنانية والانطواء على النفس الذي يورث الهم القاتل لكل همة خينا ، فتجد النفوس السقيمة لذتها في الشكوى والبكاء ، وفي أن تحيا كالبوم والخفافيش في الظلام ، أو العكوف على الشهوات الصارف عن كل خير خينا آخر ، وباسم الواقعية وباسم التحليل النفسى ظهرت ألوان من الأدب ومن القصص خاصة تخوض في أحوال الرذيلة ، وتعرض خفايا العورات ،

وتجرح كثيرا من الفضائل بزعم أنها تورث الكبت ، وتبرر كثيرا من الرذائل باسم التنفيس ، وتسقط التبعية في كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية ، وباسم التحرر واستقلال الشخصية شاعت دعوة إلى إعادة النظر في كل مواردنا الخلقية ومعاييرنا الاجتماعية . وإلى الخروج على كل ثابت مقرر مما توفره التقاليد ويقدهه الدين ، وإلى أن يبني كل فرد لنفسه عالما مستقلا من القيم ، تصبح معه مقاييس الخير والشر فردية ، فلا يكون هناك خير هو خير عند كل الناس ولا يكون هناك شر هو شر عند كل الناس شر ، وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع ، لأن الروح الجماعية هي أساس كل تماسك اجتماعي ، لا يكون هناك إلا الفوضى والخراب ، وباسم البحث العلمي والموضوعية راجت ألوان من الدراسات الأدبية والنقدية ، موضوعها آداب قدرة ماجنة ، زعم الزاعمون أن من مقتضيات المنهج العلمي أن يحترمها الدارسون حين يتناولونها بالدرس ، وأن لا يعلقوا عليها بما يغض من قدرها أو يسفه مذاهب أصحابها .

2 والواقع أن كثيرا من الآداب والدراسات التي تنزى في عصرنا هذا بزى الفن والعلم ، وتتستر تحت اسمها ليست من النزاهة في شيء ، فكثير منها موجه لخدمة مذاهب معينة ، وتدعيم

اتجاهات مغرضة ، وتحقيق بعض الخطوات المرسومة في خطة
من خطط هذه المذاهب والمصالح والاتجاهات .

ومن شاء فليقرأ خطط الصهيونية العالمية الهدامة المشهورة
باسم «بروتوكول حكماء صهيون» ليقراً ما جاء في البروتوكول الثاني :
(أما غير اليهود فإنهم لا يستفيدون من تجارب التاريخ التي تمر
بهم ، ولكنهم يتمسكون بنظريات روتينية دون تفكير في النتائج
التي يسفر عنها هذا المسلك . لذلك فنحن لا نعتبر غير اليهود أية
أهمية . فإعلموا ما طاب لهم اللهو حتى ينقضي الوقت ، وليعيشوا
على أمل ملذات جديدة ، أو في ذكرى متع سالفة ، وليعتقدوا أن هذه
القوانين النظرية التي أوحينا بها إليهم ذات أهمية قصوى . فهذا
الاعتقاد الذي تؤكد صحافتنا زيدا من ثقتهم العمياء في هذه القوانين ،
يجب ألا يكون هناك إعتقاد في أن مناهجنا كليات جوفاء .
فنحن الذين هيأنا لنجاح (دارون وماركس ونييتشه) . ولم يفتننا تقدير
الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود) .
وليقراً ما جاء في البروتوكول الرابع :

« إن لفظ الحرية » تجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى ، بل
مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها « جل الله وعلا » على أن الحرية
قد لا تنطوي على أي ضرر . وقد توجد في الحكومات وفي البلاد دون



أن تسيء إلى رخاء الشعب . وذلك إذا قامت على الدين والخوف من الله . والإخاء بين الناس . المجرد من فكرة المساواة التي تتعارض تماما مع قوانين الخليقة ، تلك القوانين التي نصت على الخضوع . والشعب باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ويعيش في سلام ، ويسلم للعناية الإلهية السائدة على الأرض ، ومن ثم يتحتم علينا أن ننزع من أذهان المسيحيين فكرة الله ، والاستعاضة عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية) .

ولنقرأ ما جاء في البروتوكول الخامس :

ولكى نطمئن إلى الرأي العام يجب بادئ ذي بدء أن نربكه تماما ، فندسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة يضل معها غير اليهود الطريق في تيههم فيدركون حينئذ أن أقوم سبيل هو ألا يكون لهم أى رأى في الشؤون السياسية ، والسر الثانى الملازم لنجاح حكومتنا يقوم على مضاعفة الأخطاء التى ترتكب والعادات والعواطف والقوانين الوضعية فى البلاد ، لدرجة يتعذر معها التفكير تفكيراً سليماً وسط تلك الفوضى) .

ولنقرأ ما جاء فى البروتوكول التاسع :

(ولكى نحطم التنظيمات التى أقامها غير اليهود عاجلاً ، فإننا

قد دعمناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتنا ، فقد كانت
الأجهزة تسير في الماضي بنظام صارم ولكنه عادل ، فأحللنا محله
نظاما متحررا غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى
المناورات الانتخابية ، وتحكمتنا في إدارة الصحافة وفي نمو الحرية
الفردية ، والأهم من ذلك كله إشرافنا على التعليم وهو المعول
الرئيسي للحياة الحرة) .

من هذه النصوص التي تفسر كثيرا مما يصطرح في العالم الآن
من مذاهب ونحل ، يبدو أننا لا نفلو في القول حين نطالب
بالاحتياط في قبول كل ما يرد على الناس باسم الفن والعلم ،
و حين ندعو الناس إلى أن يعرفوا حدود طاقاتهم وإلى أن يحددوا
ميادين العقل وميادين التجريب .

إننا لا ندعو إلى مصادرة البحوث النفسية والاجتماعية
والخلقية ، فذلك ما لا يدعو إليه مفكر يقدر نعمة العقل ،
ولكننا ندعو إلى تقييدها بالدين ، لئلا تتفرق بالناس السبل ،
ولكي لا تمزقهم الخلافات الواسعة والمذاهب المتصارعة
المتناقضة .

وليس الدين قيда في حقيقة الأمر ، لأنه لا يعطل العقل ،
ولكنه يحفظه من الضلال ، ويلزمه أصولا وقواعد ، هي كالسور
الذي يعصم السالك في الظلام من التردى في الهاوية .

وهي مثل قوانين المنطق التي لا يعتبر التزامها حدا للتفكير
ولكنه عصمة له ، وهي مثل الدستور الذي لا يعتبر تقييداً لفقهاء
به في كل ما يقننون حداً من سلطاتهم ، ولكنه ضمان لهذه السلطة
أن تزيع عن القصد ، عن علم أو عن غير علم .

٢ « وقد كان من أثر سيادة هذه المذاهب الفردية الهدامة
أن شاع في شباب الكتاب وفي بعض شيوخهم موجة من النقد
تهاجم الشعراء الذين يهتدون بالمجتمع وتتناولهم بالتحقير ،
وتخرجهم من زمرة الشعراء والأدباء حين تصفهم - على سبيل
الاستهزاء - بأنهم شعراء المناسبات ، أو بأن ما يكتبونه
ليس أدباً ، ولكنه وعظ . وكأنه قد أصبح من شروط الأدب
أن تخرج موضوعاته عن حدود الأدب ، وأن ياتزم التعبير عن
جوع المنحرفين إلى الشهوات .

وقد كانت القصة هي أبرز ما استحدثت من فنون الأدب
بعد الحرب العالمية الأولى ولم تلبث أن طغت على سائر فنون
الأدب حتى أخلت الشعر أو كادت ، ورحبت بها الصحف على
اختلاف ألوانها ، وجعلها الكثير منها باباً من أبوابها الثابتة
استجابة لرغبات جماهير القراء ، الذين أقبلوا عليها إقبالا شديداً ،

وساعد على رواجها بروز المسرح ثم ظهور السينما وتقدم صناعتها
وأعان على هذا الرواج سهولة تذوق القصة ، وهى مع ذلك
أكثر ملاءمة للشباب ، لأنها أقدر على توفير الأجواء الحاملة
التي تلائم سن المراهقة خاصة ، مما يجعلها أقوى الفنون الأدبية
تأثيراً عايه وأخطرها فى توجيهه .

وقد زاد فى خطورتها سهولة تناولها وصعوبة التمييز بين
الجيد منها والردىء على غير العارفين من العلماء وناضجى
التفكير .

فما أسهل أن يملأ الكاتب - أى كاتب - صفحات
وصفحات بقال وقالت وبحكايات ملفقة ، ولا سيما بعد أن هجر
الناس اللغة الفصيحة التي لا يستطيعها إلا المثقفون ، إلى لغة
الأسواق التي لا يتميز فيها عالم عن جاهل ، باسم الواقعية وباسم
الشعبية ، لذلك ، ولما لمؤلف القصة من حرية واسعة فى تصريف
أحداثها ورسم شخصياتها أصبحت من أخطر الأدوات تأثيراً
فى المجتمع ، وتجراً على كتابها القادرون عليها وغير القادرين ،
والناضجون من أصحاب المواهب والنافهمون من الأغرار
والجهال .



واندس بين هؤلاء كثير من مرضى النفوس ومن ذوى
الآهواء ومن ينقلون حين يترجمون أسوأ ما قرأوا من قصص
الغرب المبتذلة ولا يتكلفون حين يؤلفون أكثر من تغيير
الأسماء ، وبذلك أصبحت القصة معرضا للنماذج المنحرفة الشاذة
المثيرة لأخط الغرائز ، وتعبيرا عن أمراض النفوس وانعكاس
المعايير والتنقيس عن الشهوات ، (١) اه .

(١) دكتور محمد محمد حسين : اتجاهات هدامة فى الفكر الغربى المعاصر .

(٤)

وتقول السيدة (نازك الملائكة) في بحثها القيم عن الأدب والغزو الثقافي :

« يحرص الغزاة وأعدائهم من الشعوبيين على قتل المعنوية العربية وإحلال المعنوية الغربية محلها ويكادون اليوم ينجحون في ذلك ، فقد طالع في السنوات الأخيرة أدب عربي تنعكس فيه سمات النفسية الأوروبية ، ومظاهر الأدب الغربي ، وقد استعان الغزاة في عملهم هذا بوسائل معنوية مكنتهم من اجتذاب الجيل العربي الناشئ الذي يملك بقله عليه وتجاربه ، استعداداً فطرياً للتأثر . والوسيلة الكبرى للتأثير في اليافعين هي استعمال القيم الرفيعة التي يحرصون عليها مثل الإنسانية والحرية فباسم هذه القيم يتم تضليلهم .

أما الإنسانية فإن الشر الذي يتستر وراءها اليوم هو قولهم (الأدب العالمي) وبه يوحون لليافعين أن هناك أدباً عالمياً يتخطى الحدود ويعبر عن نفسية الشعوب أجمعين . بمعزل عن

ظروفها وشخصيتها ، وأن هذا الأدب لا يناقش وإنما يقبل في كل مكان ، فمن لم يقبله كان جامداً أو رجعياً ، أو جاهلاً .

وهم يضعون على عرش العالمية مجموعة من الأسماء الغربية في الغالب ويسألون الشباب أن يعجبوا بكل حرف يقوله أصحابها دونما فحص أو مناقشة .

والأدب الغربي قد يكون عظيم الشهرة ، ذا تأثير في أوروبا كلها دون أن يعنى ذلك أن آراءه تنفعنا أو تتفق مع مطالب حياتنا الاجتماعية والفكرية . والواقع أن أغلب آراء (سارتر) تنافض روحيتنا وحضارتنا فلا مصلحة لنا في اعتناقها إلا إذا أردنا أن نهدم أنفسنا ، ذلك أن (جون بول سارتر) : ناشر فلسفة الغشيان ، ومضمونها أن المجتمع يغرض وأن وجود الناس حولنا هو الجحيم ، وأن الأخلاق والمثل والتقاليد سخافات يتلهى بها السطحيون ، وأن الحياة حواء فارغ فلا يستحق الاهتمام فيه إلا الجسد والجنس وأن الإنسان غير مسئول لا أمام الله ولا أمام الضمير ولا أمام المجتمع . ولقد انتهى الجيل اليافع إلى تصديق خرافة العالمية فلم يقف عند الإعجاب بالأشكال الأدبية واللغات الفكرية والأساليب التعبيرية ، وإنما قلد النظرة واعتنق الآراء .

وأما القيمة الثانية التي يستغلونها في تضاليل اليافعين العرب ،

فهى الحرية ، وقد زعموا أنها معنى مطلق لا يتقيد بشيء ، فبكل حرية أفضل من كل تقيد .

وما من إلحاد اجتماعى وأخلاقى أقطع من هذا .

فإن المطلق معنى لا وجود له فى الحياة الإنسانية ، لأن منفعة الجماعات تتحكم فيه فتقيده وتشد به .

وهذا الزعم يجعل الحرية تتعارض مع الفضيلة ، ولا ينبغى للأخلاق أن يتعارض شيء منها مع شيء ، وحسبنا دليلا على ذلك التعارض أن الحرية المطلقة للفرد تناقض مصلحة المجتمع .

م ولذلك تقيد بحفظ حقوق الآخرين ، ومصاحبة الجماعة كلها . X

وعلى هذا تبطل حجة الذين ينادون بحرية الأديب فى نشر أدب الجنس والإلحاد ، فإن هذا الأدب يهدم المجتمع ، ومن حق الجماعة أن ترفضه فلا يحق للمواطن أن يطعن أمتة فى صميم كيائها الروحى والخلقى بدعوى حقه من الحرية .

2 وهكذا اتجه أدبنا الحديث بدوافع من الإنسانية وحرية الفكر ، إلى ترديد آراء الغريبيين ، دونما فحص أو مناقشة ، فانتشرت روحية التشاؤم فى أدبنا وشاع الإحساس بأن الحياة عبث ، وأن العدم خير من الوجود ، وأن المشاعر الطيبة « قيد ،

للإنسان، وأن الإنسان غير مسئول أمام شيء، ولا يمكن للباحث المتأمل إلا أن يلاحظ مدى بعد هذه النظرة عن طبيعة الحياة العربية اليوم، فنحن نمر بفترة خصيبة رائعة، وما من شك أن الفرد العربي أحسن حالا وأكثر أملا مما كان، فلا ندرى من أين يأتي هؤلاء الأدباء بالعدمية واليأس وإنكار الحياة.

أترى حياتنا الأدبية تسير في اتجاه معاكس لحياتنا القومية؟

ونبحث عن الجواب عند نقادنا فلا نجد لديهم أكثر مما نسمع من الناقد الغربي من أن هذا الجيل - كما يقولون - (ذو تركيبة مزاجية معقدة تعقد الحياة التي يحياها) فكأنهم لا يرون الفرق العظيم بين الفرد العربي والفرد الأوروبي. والواقع أن بيننا وبين الغرب ثلاثة فروق جوهرية:

الاول: أننا أبناء أمة تؤمن بالروح والروحيات وتضعها فوق المادة، بينما ما زال الغرب يؤمن بالمادة والماديات، ومن مظاهر إيمان الفرد البسيط هنا بالروح أنه يتوكل على الله في أموره كلها فلا يعرف اليأس ولا القنوط، وهو مؤمن بالحياة كل الإيمان، تنحدر إليه هذه النظرة من عهود سحيقة. وقد عرفنا في التراث العربي كله صفة الإيمان والتفاؤل.

فحتى شعر الزهاد كان مليئا بالحياة بما فيه من تطلع إلى الله .
وإيمان بالأخلاق والتضحية ومساعدة الآخرين .

٢٦ الثاني : إننا نختلف عن الغرب في الظروف التاريخية
التي نمر بها ، فنحن نمر بفترة حياة وابتعاث تهتز لها أرضنا كلها ،
إن مشاكلنا القومية وزحفنا نحو فلسطين ومعركتنا في حرب
النمر كل ذلك يمنحنا هدفا يستغرق حياتنا وكياننا . والمعروف
عند علماء النفس أن المشغولين لا يجدون وقتا للقلق واليأس
والإحساس بالفراغ .

٢٧ وفي مقابلنا يجد الغربي نفسه فارغا له كثير من الوقت وقليل
من الأهداف . إن في حياته فراغا روحيا عميقا سببه عدم إيمانه بالله
وخلو حياته من الهدف الكبير الذي يضفي الجمال والرونق
على الحياة .

الثالث : آخر الفروق بيننا وبينهم أن الغربي يرى غذاءه
يصل إليه عن طريق استعمار الأمم وسرقة قوتها ، ومن ثم فهو
يحس قلقا غامضا ، لا يعرفه العربي الذي يأكل القليل الحلال ،
ويحمد الله وينهض إلى عمله .

* * *

إن هذه الفروق بيننا وبين الغرب تجعل نقلنا لموقف اليأس

والعدمية والفراغ أمراً لا معنى له سوى تخليتنا عن كرامتنا
ومصاحبتنا وشخصيتنا ، فكأننا نبكي في يوم عيدنا .

فاللون الذي يغلب على حياتنا لون أخضر بهيج ، وفي مثل
هذا الإطار المشرق يصبح الأدب المنشأ المعلق على الصليبان
أبعد ما يكون ، عن التعبير عن نفسية الأمة .

إلا أن أدباءنا وقفوا عن التعبير عن مشاعرهم وراحوا
يكررون ما يقول الأديب الغربي . ا . هـ

القضية الثامنة

2 الإسلام والمجتمع

من أخطر الشبهات التي توجهها الفلسفة المادية الغربية إلى الإسلام شبهة الفصل بين الدين والمجتمع ، أو الدين والمدنية أو الدين والدولة في مفهوم الإسلام . وقد جرى بعض الباحثين المسلمين هذا المجرى ببعض دوافع السياسة الحزبية في الماضي أو ببعض المتابعة للفكر الغربي والنفوذ الاستعماري فقالوا : إن الإسلام شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ، أما ما بين الإنسان من المعاملات الدنيوية وتدير الشئون العامة فلا شأن للشريعة الإسلامية به وليس من مقاصدها .

وقد واجه العلامة (فريد وجدي) هذا المفهوم فقال :
« إن قاعدة فصل الدين عن السياسة هي قاعدة أوربية محضة سبب حدوثها أن الدين في أوربا توصل إلى تكوين سلطة مستبدة

قادت العامة والملوك فصبرت الحكومات قرونا تحت نيرها ثم بدأت في إلقائه عنها ، ونشأت من ذلك حروب حتى تغلب الآخرون ، وقرروا فصل الدين عن السياسة ، فهل تنطبق هذه القاعدة على ديانتنا الإسلامية في شكلها الخاص .

ليس في كتابنا (أى القرآن) أن يكون لنا هيئة رئاسة دينية بإزاء هيئة رئاسة دنيوية ، بل إن الإسلام رعى إلى هدم ما كان يسمى بالسلطة الدينية وقوض كل أساس يمكن أن تنبنى عليه تلك السلطة والإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة .

ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد وقابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها، ومعنى فصل الإسلام عن السياسة فصل الأخلاق العامة عن السياسة ولا يقول بهذا عاقل .

* * *

ويقول الدكتور (محمد البهي) :

« إن الإسلام دين الله ورسالة خاتم الأنبياء والرسل - عليهم

الصلاة والسلام - لا يعرف الفصل بين دين ودولة وإنما يعرف الحياة الإنسانية للفرد وفي علاقته بغيره ، ولا يعرف قضية للدين والعلم وإنما يعرف مؤمنا بالله يحكي صفاته في نفسه من : علم وغنى وخاق وإبداع ، ويتقرب بما يحاكيه إليه جل جلاله ولا يعرف حكومة إلهية ولا رفعا لإنسان عن مستواه الإنساني وإنما يعرف إنسانا يُصيب ويخطيء في تقديره وفي رأيه وفي علمه ، ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر أو العرق وإنما يعرف أن الناس جميعا سواء في الاعتبار البشري وفي المسؤولية لله ، وأن التفاضل بينهم هو في مدى تحقيق مستوى الإنسانية في تفكير المؤمن وسلوكه وعمله هو في التقوى والعمل الصالح (١) .

ح وجملة القول في هذا : أن الإسلام يربط بين علاقة الإنسان بالله وعلاقة الناس بعضهم ببعض ويوجه العلاقتين ، وهو لا يقف عند الجانب الروحي وحده ولكنه يشمل النشاط الإنساني بأسره ، الفردي والاجتماعي . ومثل هذه النظرة تمنع بطبيعة الحال الفصل بين أمور الحياة الدينية والدنيوية وتمنع الفصل بين ما لقيصر وما لله . فالارتباط في الإسلام بين

(١) من بحث مستفيض عن (الدين والدولة) .

الدين والسياسة عميق وأساسى وهو فى هذا يختلف عن الفكر الغربى الذى فصل بين مسائل الاعتقاد ومسائل الحياة العملية واعتبر كلا منهما ينتمى إلى مملكة مغايرة للأخرى . لقد فصلت أوروبا بين الدين والسياسة نتيجة تاريخ طويل من تحيز الكنيسة التى فرضت الظلام والتخلف والجمود باسم الدين ، أما الإسلام فقد حرص على العلم والنهضة والتقدم وفتح الآفاق أمام التطور .

القضية التاسعة

الإسلام والروحانية الحديثة

من الدعوات التي تسوقها قوى الغزو الثقافي والاستعمار الفكري ، دعوة الروحانية الحديثة التي تعتمد على استحضر أرواح الموتى . وهي دعوة تعارض مفهوم الإسلام في أنها تخضع عالم الغيب للتجريب « فهي تلبس مسوح العلم وتصطنع اسمه حين تزعم أنها تجري التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا، وتدعى أن هذا هو سبيلها إلى رد الناس عن تيار المادية الطاغية والواقع أنها ليست حرباً على المادية كما يزعم أصحابها . ولكنها إغراق فيها وإمعان في التمسك بها . لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوسات للنهج التجريبي ولكنها تتناول إلى ما وراءها تريد أن تخضعه للتجربة وإذا سلم الناس بذلك انتهى بهم الأمر إلى إنكار كل ما لا يمكن ثبوته عن هذا الطريق » .

« ومن المعروف ^(١) أن الصهيونية الهدامة تكمن وراء كل

راجع بحث الدكتور محمد محمد حسين (الروحانية الحديثة: حقيقة لها وأهدافها).

الحركات السياسية والاجتماعية الكبيرة في القرن الأخير بل منذ الثورة الفرنسية . وقد لا تكون الصهيونية هي المؤسسة للدعوة الروحية وأشباهها فبعض هذه الدعوات نشأ مستقلاً عنهم بعيداً عن سيطرتهم ولكنهم تمكنوا من التسلل إليها وسيطروا عليها واستغلوها لصالحهم « والشئ الذي لا شك فيه أن الروحية في وضعها الراهن شرك من شرك الصهيونية العالمية الهدامة وآلة في أيديهم يسخرونها لهدم المسيحية والإسلام على السواء وهدم العصبية بكل أشكالها قومية كانت أم دينية ، لكي يمهّدوا لقيام دولتهم الصهيونية التي يتوهمونها وسط أنقاض الخراب العالمي والانحلال الشامل الذي يسهل مهمتهم في السيطرة على العالم كله على ما يتخيلونه » .

2 « ومن أقوى الأدلة على صلة الروحية بالصهيونية العالمية الهدامة المطابقة الكاملة بين مزاعم الروحيين وبين عقائد اليهود في تصور الثواب والعقاب خاصة ، فكلاهما يعتقد أنهما سيكونان في آخر الزمان على الأرض ، ويهاجم الروحيون جميعاً رجال الدين عامة مهاجمة قاسية تذكرنا بما جاء بالمادة الرابعة عشرة من مقررات حكماء صهيون :

2 (ويعرض فلاسفتنا كل مساوي أديان غير اليهود . ولكن

لن يحكم أحد أبدا على ديننا من وجهة نظره الحققة . لأنه لا يعلم
به إلما تاما سوى رجالنا الذين لن يخاطروا فى أية حالة
بالكشف عن أسرارهم) .

ويذكرنا كذلك بما جاء فى المادة السابعة عشرة من
البروتوكولات : « لقد عينا خاصة بالعيب فى رجال الدين غير
اليهود والخط من قدرهم فى نظر الشعب وأفلحنا كذلك
فى الإضرار برسالتهم التى تنحصر فى تعويق أهدافنا والوقوف
فى سبيلها حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام » .

2 ومن أساليبهم الخبيثة فى هدم الدين ما تختبره دوائرهم
من أسماء الفراعنة من قدماء المصريين والهنود الحمر من قدماء
الأمريكيين الذين يزعمون أنهم يحتلون مكان القيادة بين أرواح
الموتى . وينسبون إليهم مهمة ما يسمونه (الأرواح الحارسة)
فى جلساتهم ، وهى الأرواح التى تتولى تنظيم الكلام بين الأرواح
المتكلمة بزعمهم وتتولى فى الوقت نفسه حراسة الجلسة من تدخل
الأرواح المشاغبة ومن الواضح أنهم يقصدون بذلك هدم الإسلام
والمسيحية وزعزعة يقين الناس فيهما بتمجيد الوثنية الضالة
الكافرة التى سبقتهما وتصوير هؤلاء الوثنيين بعدموتهم متمتعين
بطمأنينة ونفوذ لا يتمتع به المتدينون بالإسلام والمسيحية .

وقد سرت هذه الدعوى إلى المشتغلين بالروحانية من المسلمين
الذين يمجدون الفرعونية والفراعنة فى الوقت الذى ينددون
فيه بعلماء الدين .

ومنظمات الروحانية مع ذلك تشترك مع كل المنظمات التى
تعمل فى خدمة الصهيونية العالمية فى أنها تهدم «الخلق» حين تهدم
«الدين» فالدراسات الروحانية قد أصبحت أداة هدم كالدراسات
النفسية المنخرقة سواء بسواء ، فالفرويديون يبررون الجريمة حين
يصورون المجرم مريضاً ويرجعون دوافعهم إلى عقد نفسية مستقرة
فيما يسمونه العقل الباطن فليس هناك إذن ما يدعو إلى القصاص
بل ليس هناك ما يدعو إلى أن ينجل مجرم من نفسه ولا إلى أن
ينبذ المجتمع مجزماً ويطارده بالاحتقار ما دامت المسألة مرضاً
لا حيلة فيه ؟ والروحانيون يذهبون هذا المذهب نفسه من طريق
آخر فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه
(المس الروحي) .

والمجرم فى الحالين مكره على الجريمة يرتكبها تحت عامل داخلى
عند الفرويديين أو تحت عامل خارجى عند الروحانيين وكل منهما
يهدم التقنين الخلقى من أساسه لأنه يمحو المسؤولية الفردية التى هى
مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة ، ومن الواضح أنه يمحو

في الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها بل القوانين الوضعية أيضا،
فهو عود إلى الجبرية الضالة المفسدة للدين والدنيا جميعا ، وبمثل
ما يفسد الروحانيون على الناس دنياهم يفسدون عليهم دينهم بما
يزعمون لهم من أن الجنة والنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ،
وأن الناس على اختلاف أديانهم وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم
يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفسها حياتهم على الأرض ،
وأن فرصة التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم ، وهم بذلك
يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد وهم في الوقت نفسه
يزجون بأنفسهم فيما اختص الله ذاته سبحانه وتعالى بعلمه .

٥- لا ينبغي أن يغيب عن بال الناس أن إطلاق الاتصال
بالموتى وجعله في متناول كل إنسان والاستعانة بهم في علاج
مرضانا وفي شئون دنيانا المختلفة ، إفساد للحياة التي يقوم بعض
عمرانها على التنافس واستباق الخيرات وعلى المحاولة المتصلة الدائمة
المتكررة في سبيل التفوق وفي التغلب على الصعاب⁷ والانتصار
على مصادر التعب والقلق ومن بينها المرض ، وهو كذلك إبطال
للحكمة في خلق الموت والحياة وما قدر الله سبحانه وتعالى⁷ وقضى⁷
في إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها تنتظم بها حياتنا في الدنيا
والآخرة .

وقد أغنى الله المسلمين عن التماس الهدى والخير في هذه
المجازفات فأنزل عليهم كتاباً لا يضلون إن تدبروه واتبعوه فمن
أعرض عنه واتمس الهداية والرشاد في سواه ضل وكان الشيطان
له قرينا وساء قرينا .

وما أرى أولئك إلا أن يحتاروا بين الكفر والإيمان وبين
الضلال والإسلام ، إن الصهيونية العالمية الهدامة التي تجذب
الخيوط من خلف الستار وتحرك الدمي التي نراها تتحرك على
المسرح داعية إلى « المجتمع الجديد » لا تريد أن تبقى من المجتمع
الجديد شيئاً : لغته وأدبه وفنونه ونظمه وأنماط حياته وأخلاقه
ودينه ، كل شيء فيه . وبعض هذه الدمي يظن في نفسه ويظن به
الغافلون من الناس ، أنه هو الذي يتحرك ، وأنه هو الذي يقول ،
وهو الذي يفكر ويعمل ، لأن الأيدي الهدامة الخبيثة لا تحرك
بطريق مباشر ، فهو متأثر بما يقرؤه لأسماء كبيرة في أعين الناس
من مروجي الدعوات الهدامة ، وهؤلاء يهدمون المجتمع القديم
في كل ما ذكرته وما لم أذكره من مقوماته ليجعلوا مكانها
(العالمية) التي يلوحون بها للناس ويزعمونها مفتاح الأمن والسعادة
والسلام ، ولن يكون بعد (عالمية) ولن يكون إلا الخراب ولكن
الخراب حائق بالمفسدين .

وذلك وعد الله سبحانه وتعالى حيث يقول :
« وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم
سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .
وحيث يقول تبارك وتعالى : « وألقينا بينهم العداوة
والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله
ويسعون في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين » .
« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الحق هنا فنوا

« خاتمة »

« ما يزال الفكر الإسلامى يقاوم دون أن يستسلم وهو
آخر الحصون الصامدة فى وجه الغزو إذا ضعفت حصون
المجتمعات .

وإن قيم الفكر الإسلامى ما تزال حية تناضل وتقاوم
ولن تستسلم » ؟

أنور الجندى

مع تحيات أسرة الإشراف الفنى للسادة القراء
فى رحاب العلم والإيمان

الفهرس

المنفعة

الوزن—وع

تقديم لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن ييصار

٥	الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية . . .
٧	مدخل إلى البحث
١٢	حقائق أساسية
١٨	أخطار تهدد النفس الإنسانية
٢٣	أضواء على التغريب
٣٠	الإسلام والعلم
٧٠	الإسلام والدين
٨٧	» والتوحيد
١١٥	» والحضارة المعاصرة
١٢٩	» والنفس الإنسانية
١٨٨	» والأخلاق
٢١٣	» والأدب
٢٢٧	» والمجتمع
٢٣١	» والروحية الحديثة
٢٣٨	خاتمة

رقم الإيداع ٥١٦٥ لسنة ١٩٧١ م

مطبعة الأزهر